سلسلة
آفاق عالمية
105

الروح الحلوة لدون داميان

قصص قصيرة من أمريكا اللاتينية

خوان بروش وآخرون

ترجمة: محمد إبراهيم مبروك

الهيئة العامة لقصور الثقافة

الرُّوح الحلوة لدون داميان

سلسلة
آفاق عالمية

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
سعد عبد الرحمن
أمين عام النشر
محمد أبو المجد
الإشراف العام
صبحي موسى
الإشراف الفني
د. خالد سرور

• الروح الحلوة لدون داميان
• ترجمة: محمد ابراهيم مبروك
• الطبعة الأولى:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة - 2012م
13,5 × 19,5 سم
• تصميم الغلاف:
أحمد اللباد
• رقم الإيداع: ١٩٥٢٧/ ٢٠١٢
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالي: 16 أ شارع أمين سامي - قصر العيني
القاهرة - رقم بريدي 11561
ت: 27947891 (داخلي: 180)

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

105

سلسلة شهرية تعنى بنشر الأعمال المترجمة إلى اللغة العربية في الأدب والنقد والفكر من مختلف اللغات

• هيئة التحرير •
رئيس التحرير
رفعت سلام
مدير التحرير
لطفي السيد
سكرتير التحرير
مني هيبة

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة بل تعبر عن رأي وتوجه المؤلف في المقام الأول.

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن كتابي من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

بورخيس، خوان بوش، بالنثويلا، وآخرون

الرُّوح الحُلوة لدون داميان

(مختارات قصصية من أمريكا اللاتينية والبرتغال)

ترجمة (عن الإسبانية)
محمد إبراهيم مبروك

وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة

الرُّوحُ الحُلوة لدون داميان

خوان بوش

(لابيجا، 30 يونيو 1909ـ سان دومينجو 1 نوفمبر 2001)

زاوج بين الإبداع الأدبي واهتماماته السياسية والتي غالباً ما تنعكس رؤاها في أعمال كتاب أمريكا اللاتينية. وعلى الرغم من أسفاره إلى بلدان عديدة، فإن أعماله تعكس اهتمامه الأساسي بهموم وطنه "الدومينيكان".

أول رئيس لجمهورية الدومينيكان، بعد موت الديكتاتور (تروخيو)، إلا أنه لم تكد تمر ستة أشهر على رئاسة خوان بوش حتى سقط حكمه بانقلاب عسكرى وقفت وراءه أمريكا، وتم نفيه إلى بويرتوريكو ثم أوربا، وبعدها عاد إلى بلاده.

من أعماله القصصية:

☆ الطريق القويم — Camino Real

☆ شجرة الخروب el algarroba

☆ قصص مكتوبة قبل المنفى Cuentos escritos antes el exilio

☆ قصص مكتوبة في المنفى Cuentos esctitos en el exilio

وهو من كتاب القصة القصيرة بشكل أساسى، وتمتلك قصصه حساً بالغ الرهافة بالشخصية الإنسانية، ومعرفة عميقة بالطبيعة البشرية، والطينة التى جبلت منها، ومصائرها المتنوعة.

دخل دون داميان بسرعة مرحلة فقدان الوعي مع ارتفاع درجة حرارته إلى ما فوق 39 درجة. وأحست روحه بعدم الارتياح بدرجة خطيرة كما لو أنها تقريباً تحترق، ولذلك فقد بدأت تستجمع نفسها وتنسحب باتجاه القلب. كانت الروح تمتلك ما لا يُحصى من المجسات مثل أخطبوط بأقدام لا تحصى، بعضها في الشرايين والأخرى رفيعة جداً في الشعيرات الدقيقة للأوعية الدموية. وشيئاً فشيئاً كانت تدفع بتلك الأقدام للخارج. ونتيجة لذلك، تغيرت حالة دون داميان فأصبح جسمه بارداً وفقد وجهه لونه. بدأ البرد في يديه، وبعد ذلك في ذراعيه وساقيه. ويبدأ الوجه يشحب بشكل فظيع، وهو ما بدأ يلاحظه الأشخاص المحيطون بسريره البالغ الفخامة. وانتبهت الممرضة الخاصة به، وأصيبت بالفزع، فقالت إن الوقت قد حان لاستدعاء الطبيب. وسمعت الروح هذه الكلمات، وفكرت: "يجب عليَّ أن أسرع، وإلا فإن هذا السيد سيأتي ويجبرني على أن أبقى هنا، وتحرقني الحمى".

بدأ نور الفجر يُشقشق، ومن خلال زجاج النوافذ تسلل ضوء واهن ليعلن ميلاد يوم جديد. وأطلت الروح من فم دون داميان ـ الذى بقى مفتوحاً إلى حدٍّ ما ليسمح بمرور القليل من الهواء. لاحظت الروح الضوء، وقالت لنفسها إنها إن لم تتحرك بسرعة فلن تستطيع أن تقوم به لو تأخرت أكثر من ذلك؛ ولابد أن الناس ستراها خارجةً فتعرقل مغادرتها لجسد صاحبها. وكانت روح دون داميان جاهلة تماماً بما يخص عدة أمور؛ فمثلاً هي لا تعرف أنها ما إن تتحرر دفعة واحدة حتى تكون النتيجة أن لا أحد يمكن أن يراها مطلقاً.

كان هناك هرج ومرج لوقت طويل من النساء، وهن يحمن حول السرير البالغ الفخامة حيث يرقد المريض. وقلن كلمات طائشة لم تهتم الروح بأن تسمعها، لأنها كانت منشغلة بكيفية هروبها من سجنها، ودخلت الممرضة وحقنة مما تعطى تحت الجلد بيدها:

ـ أي، يا إلهي، يا إلهي، أرجو ألا يكون ذلك متأخراً!ـ علا صوت الخادمة العجوز، لكنه كان متأخراً. ففى الوقت نفسه الذى كانت إبرة الحقنة تنغرس في ذراع دون داميان، كانت الروح قد أخرجت من الفم آخر مجساتها. وفكرت الروح بأن الحقنة تكلفة بلا جدوى. وبعد فترة قصيرة سمعت صرخات شتى وخطوات مندفعة؛ فيما كانت إحداهن ـ لابد أنها الخادمة، لأنها لا يمكن أن تكون الحماة أو زوجة دون داميان ـ قد اندفعت في العويل فوق السرير. والروح انطلقت في فضاء الحجرة متجهة مباشرة إلى المصباح الزجاجى المصنوع في بوهيميا، والمعلق في منتصف السقف، وهناك قبضت عليه بكل قوة ونظرت إلى الأسفل

تحتها: دون داميان وقد صار بالفعل جثة صفراء، بقسمات وجهه التى استحالت تقريباً في صلابة وشفافية زجاج بوهيميا، وعظام وجهه بدت أكثر بروزاً، وجلده اتخذ لمعة منفرة. وبجواره كن يتحركن. الحماة، والسيدة، والممرضة، بينما الخادمة العجوز تنخرط في البكاء وهى تدفن وجهها في الأغطية. عرفت الروح تماماً ما الذى تفكر فيه كل واحدة منهن، وما الذى تشعر به، إلا أنها لم تحب أن تضيع الوقت في مراقبتهن. كان الضوء يزداد كل لحظة، وكانت هى خائفة من أن يلملموها في المكان العالى حيث هي موجودة جاثمة على المصباح، ومتشبثة به وبها خوف لا يوصف. وفجأة رأت حماة دون داميان تأخذ ابنتها من ذراعها وتمضى بها إلى الطرقة. وهناك قالت لها بصوت شديد الخفوت، وهنا الكلام الذى سمعته الروح:

- لا تتصرفى الآن بشكل فيه قلة حياء، وعليك أن تظهرى أنك متألمة.

- عندما يبدأ الناس في الحضور، يا أمي- قالت لها الإبنة هامسة.

- لا. من الآن. وتذكرى أن الممرضة يمكن أن تحكى عن كل شىء فيما بعد.

وعلى الفور جرت الأرملة حديثة الترمل إلى السرير كالمجنونة وهى تقول:

- داميان، داميان يا زوجى، آى، داميان يا زوجى! كيف سأقدر على الحياة بدونك؟ يا داميان يا حياتى؟

روح أخرى في عالم اقل خبرة كان يمكنها أن تُصعق من الدهشة لكن روح دون داميان هذه تشبثت بالمصباح، وأعجبت بالطريقة التي لعبت بها الدور، لأن دون داميان نفسه كان يلعب بعض الأدوار في مناسبات معينة، وفوق كل شيء، كان يلعب الدور كما خطط له "دفاعاً عن مصالحي"، والأرملة تبكي الآن "دفاعاً عن مصالحها"، فهي لا تزال شابة وجذابة، وعلى العكس منها دون داميان؛ فقد تعدى الستينيات من عمره. وفي بداية تعرف دون داميان بها، كان لها خطيب، وقد عانت روحه في بعض الفترات بشكل بالغ السوء بسبب الغيرة من الحبيب المجهول. واسترجعت الروح تلك الفترة التي استمرت لعدة شهور، عندما واجهته زوجته وأعلنت أمامه بوضوح:

- أنت لن تستطيع منعي من أن أكلمه. فأنت تعرف أنني تزوجتك من أجل أموالك.

مما دفع دون داميان إلى أن يرد عليها بأنه قد اشتراها حتماً بأمواله، لكن ليس لتجعله مثاراً للسخرية. كان مشهداً كريهاً للغاية. ومع تدخل الحماة، كانت هناك تهديدات بالشروع في الانفصال، وباختصار كانت لحظة سيئة، زادت سوءاً نتيجة الظروف التي جعلت المناقشة تتوقف فجأة وبشكل قاطع، عندما حضر بعض الضيوف، وكان على الزوجين أن يرحبا بهم بابتسامات آسرة وبأشكال بالغة الرقة، مما جعلها هي فقط، وروح دون داميان تظهر قيمتها الحقيقية.

كانت الروح لا تزال موجودة عالياً فوق المصباح تسترجع مثل تلك الحوادث عندما وصل بسرعة شديدة القسيس، ولم يعرف أحد لماذا

حضر في مثل هذا الوقت، فالشمس لم تكد تستكمل شروقها، والقسيس كان قد قام بزيارته خلال الليلة الماضية:

ـ لقد جئت لأنني تساورني الشكوك، فجئت لخوفي من أن يسلم دون داميان الروح دون اعتراف- حاول أن يشرح سبب حضوره.

وحماة المرحوم والتي لم تكن تثق فيه؛ سألته:

ـ لكن ألم يعترف الليلة الماضية يا أبانا؟

كانت تشير بذلك إلى أن السيد القسيس ظل- ما يقرب من الساعة- في لقاء منفرد خلف باب مغلق مع دون داميان في الليلة الماضية.

واعتبر الجميع ذلك أمراً مفروغاً منه؛ وهو أن الرجل المريض قد أفضى بالاعتراف. غير أن ذلك لم يكن ما حدث. والروح تعرف أن ذلك لم يكن، وبالطبع فإنها تعرف أيضاً لماذا حضر القسيس في مثل هذا الوقت الغريب، فموضوع الحديث في هذا الاجتماع الطويل كان يفتقر، إلى حد بعيد، إلى الجانب الروحي؛ فالقسيس كان يريد من الدون داميان أن يخصص قدراً كبيراً من أمواله "وقفاً" من أجل الكنيسة الجديدة التي تبنى في المدينة، في الوقت نفسه كانت رغبة الدون داميان أن يترك من أمواله قدراً أكبر من ذلك، ولكن ليس لما كان القسيس يريد؛ بل من أجل مستشفى. ولم يتوصلا بالتالي إلى اتفاق، وغادر القسيس، وما إن وصل إلى بيته حتى اكتشف الأب أنه لا يحمل ساعته. ويا له من أمر عجيب ذلك الذي حدث للروح، إذ تحررت مرةً واحدةً، وتلك القدرة التي صارت لها على أن تعرف أموراً لا تحدث أمامها، وأن تتوصل

بحدسها إلى ما يمكن أن يفكر الناس فيه أو يمكن أن يفعلونه. فالروح قد عرفت ما قاله الاب بينه وبين نفسه: "أذكر أنني أخرجت ساعتي في منزل دون داميان لأعرف كم كانت الساعة في ذلك الوقت، ومن المؤكد أنني تركتها هناك". وإذن، فالزيارة- في مثل هذه الساعة الغريبة- لن تجدي شيئاً يمكن أن نراه يتصل بملكوت السموات.

- لا، لم يعترف- كان هذا رد القسيس، وهو ينظر مباشرة إلى حماة الدون داميان- لم يصل إلى أن يعترف ليلة أمس، وأبقيناه إلى أن آتي اليوم في الساعة الأولى لكي يعترف، وربما يتناول القربان. لقد جئت بعد فوات الأوان، وهي خسارة كبيرة- قال ذلك وهو يتلفت بوجهه إلى الأركان والمناضد المذهبة، على أمل بلا شك في أن يرى الساعة فوق واحدة منها.

والخادمة العجوز، والتي كانت تعتني بدون داميان لأكثر من أربعين عاماً، رفعت رأسها فظهرت عيناها محمرتين من البكاء:

- بعد كل شيء، فسيدي لم يخطيء- أكدت- وليسامحني الرب- فلم يكن بحاجة إلى الاعتراف لأن له روحًا حلوة، له روح حلوة للغاية الدون داميان.

يا للعجب! إن هذا بالفعل شيء يثير الاهتمام! فلم تفكر أبداً روح دون داميان بأنها كانت حلوة؛ فصاحبها قام بأشياء معينة نادرة، ومثلما كان نموذجاً جميلاً للرجل الثري، ويرتدي ثيابه على أكمل وجه، واتسمت إدارته بنظرة ثاقبة للغاية في معاملاته في البنك، ولم تكن روحه

تجد وقتاً للتفكير فيما إذا كانت حلوة أم قبيحة. ومثالاً على ذلك، فقد تذكرت للحظة كيف أن صاحبها أمرها أن تشعر بالراحة عندما حدث- بعد مقابلات مجهدة مع المحامي- أن وجد دون داميان طريقة لأن يحتال على أحد المَدينين ويستولى على بيته- فضلاً عن أن هذا المدين لم يكن له مكان ليعيش فيه بعد ذلك- أو عندما رضيت شابةٌ جميلة من أحياء العمال بأن تزوره في شقته الفاخرة التي يحتفظ بها لنفسه، بسلطان الإغراء بالأحجار الكريمة وبمساعدة النقود- لأخذ الدروس، أو لعلاج صحة الأم المريضة؛ فهل كانت روحًا حلوة أم روحًا قبيحة؟

وما إن نجحت في تحرير نفسها من شرايين صاحبها حتى صارت موضوعاً يُذكر من جانب الخادمة. كان قد مرَّ- حسبما قدرت الروح- وقت قصير جداً، ومن المحتمل أن يكون الوقت الذى مر أقل مما تخيلته، لأن كل شيء قد حدث بأقصى سرعة، وفى فوضى هائلة: لقد أحست بأنها تُطبخ داخل الجسد من المرض، وأدركت أن درجات الحمى مستمرة في تصاعدها. وقبل أن ينصرف- بعد أن تجاوز الوقت منتصف الليل بكثير- خرج الطبيب لهم بقوله:

- يمكن أن ترتفع حرارته عند طلوع النهار. وفى هذه الحالة، عليكم أن تراقبوه بعناية، واطلبونى إذا طرأ أمر مقلق.

هل كان على الروح أن تترك نفسها تحترق؟ كانت هذه هى مشكلتها الأساسية، وإن كانت تلك هي النهاية المحتملة، التي كانت قد اقتربت من أمعاء دون داميان، التي كانت تنبعث منها حرارة كالنار. وإذا ما ظلت الروح باقية في جسده فسينتهي بها الأمر الى أن تهلك مثل حيوان

مشوي. ولكن كم مضى بالفعل من الوقت منذ غادرت جسده؟ لقد مر وقت قصير؛ إذ إنه لم يحس بعد بأنه تخلص من السخونة، بالرغم من البرودة الخفيفة المنعشة التى انتشرت مع طلوع النهار. قفزت ملقيةً بنفسها فوق الأواني الزجاجية للمصباح المصنوعة في بوهيميا، والتي وجدتها في مكانها. فكرت بأن الاختلاف في المناخ لم يكن كبيراً بين أحشاء صاحبها السابق ووعاء المصباح الزجاجي، ولأنه مثله فلم تصب بالزكام. لكن مع اختلاف كبير أو بدونه، فما الذي كان من الكلمات مما قالته الخادمة؟ "حلوة" قالتها الخادمة العجوز.

كانت الخادمة العجوز امرأة صادقة، وهي التى تحب سيدها لأنها تحبه، لا من أجل صورته المميزة، ولا لأنه يعطيها هدايا. ولم يبد للروح أي إخلاص فيما سمعته؛ إذ أكد القسيس:

- واضح أنه كانت له روح حلوة.

وأكدت الحماة:

- كلمة حلوة قليلة بالنسبة له، يا سيدى.

وتلفتت الروح لتنظر وترى كيف أنها، خلال كلامها، كانت تغمز بعينها لابنتها. في مثل هاتين العينين- وفى آن واحد- أمر ولعنة. بدتا أنهما تقولان: "انهارى باكيةً في هذا الوقت نفسه، يا عبيطة، لا تتصرفى هكذا حتى لا تكونى عرضةً لأن يقول عنك القسيس إنك سعيدة بموت هذا البائس". وفهمت الإبنة في الحال اللغة الصامتة والحادة، ثم انخرطت في البكاء، وهى تندب بشكل مؤلم:

- أبداً، أبداً ما وجدت روحًا حلوة أكثر من روحك! آى يا دميان يا رجلى، يا داميان يا رجلى، يا نور حياتى!

لم تتحمل الروح أكثر من ذلك. كانت ترتجف من الفضول والاشمئزاز، أرادت أن تتأكد دون أن تُضيع ثانيةً واحدةً ما إذا كانت حلوة، وأرادت أن تبتعد عن مكان يحاول كل مَن فيه أن يخدع الآخرين. فضولية ومشمئزة. وإذن، فقد قفزت من المصباح مباشرةً الى الحمَّام، الذى كانت حوائطه مغطاةً بمرايا كبيرة. لقد حسبت جيداً المسافة لكى تقع فوق السجادة بحيث لا تحدث صوتاً، فضلاً عن أنها تجهل أن الناس لا يمكنهم أن يروها، فالروح تجهل أنها بلا وزن. وأحست بارتياح بالغ عندما لاحظت أنها عبرت دون أن يلاحظها أحد، وجرت حزينة، ولملمت نفسها أمام المرايا.

ولكن، ويا لعظمة الرب، ما الذى حدث؟ أول ما تبادر لذهن الروح أنها كانت قد اعتادت، طوال أكثر من ستين عاماً، على أن ترى الأشياء حولها من خلال عينى دون داميان، تلكما العينين اللتين كانتا بارتفاع يزيد على المتر والستين سنتيمترًا. أيضاً اعتادت على أن تتطلع الى وجهه المفعم بالمرح، والى عينيه الصافيتين وشعره اللامع بدرجات اللون الرمادى، والزهو الذى ينتفخ به صدره، والملابس الفخمة الغالية التى يرتديها دائماً. لكن ما تشاهده الروح الآن، ليس فيه إطلاقاً شىء مما كان، بل ثمة شىء غريب يصل طوله بالكاد الى قدم واحدة، باهت، أقرب الى سحابة رمادية، بلا شكل محدد. وبدلاً من أن يكون لها بالضرورة ساقان وقدمان مثلما كان لجسم دون داميان، كان الموجود

عنقودًا شنيعًا من الأطراف الحساسة كتلك التى لأخطبوط، إلا أنها غير متناسقة، بعضها أقصر من الأخرى، وبعضها أرفع، وكل منها يبدو مخلوقاً من دخان داكن متسخ، من وحل مائع لا يمكن الإمساك به، يبدو شيئاً، لكنه ليس كذلك، وتبدو الأطراف رخوة تتدلى فاقدة القدرة وهائلة القبح.

لقد أحست روح دون داميان بالضياع، ومع ذلك فقد واتتها الشجاعة لأن تتطلع إلى أعلى، فلم تجد لها، في الحقيقة، خصراً، ولا جسماً، ولا عنقًا، ولا شىء بالمرة. وحيث كانت تلملم نفسها، ظهرت لها من جديد أذن ملتصقة بأحد جانبيها، أذن تبدو في بروزها مثل قشرة تفاحة معطوبة، فيما ظهرت كومة من الشعر الخشن على الجانب الآخر، بعضها أكرت وبعضها واقف. إلا أن ذلك لم يكن أسوأ ما في الأمر، ولا حتى كان الأسوأ ذلك الضوء الغريب الأصفر المائل إلى الرمادى، والذى ينبعث منها؛ لكن الأسوأ في الحقيقة كان شكل فمها، والذى لم يكن سوى تجويف عديم الشكل أقرب إلى أن يكون نُقرة، ممتلىء بالبثور كفاكهة أصابها العطب، شىء مقزز مثير للفزع. وفى عمق تلك النُّقرة عين تلتمع، عينها الوحيدة التى تتطلع من جوف الظلال إلى الخارج بتعبير يجمع بين الخوف الشديد والمكر.

كانت المرأة لا تزال كما هى والقسيس في الغرفة المجاورة، حول السرير الذى يتمدد فيه المتوفى، والذى قالت عنه إن روحه حلوة!

"كيف يمكنني أن أسير في الطريق وأنا بهذا الشكل؟".

سألت الروح نفسها وهى تلملم نفسها في نفق مظلم من الفوضى: ما الذى كان عليها أن تفعله؟ رن جرس الباب، وعندها صاحت الممرضة "إنه الطبيب يا سيدتى. سأذهب لأفتح له". وعلى الفور، انخرطت زوجة دون داميان في الانتحاب والعويل مرةً أخرى، منادية على روح زوجها الميت، وهى تندب بقسوة الوحدة التى تركها فيها.

صمتت الروح أمام صورتها الحقيقية، مدركة أنها قد ضاعت، فقد اعتادت أن تستتر في مأواها بطول جسم دون داميان، واعتادت على كل شىء بما في ذلك رائحة الأمعاء الكريهة، وسخونة أحشاء البطن، وانزعاجها من نوبات البرودة والحمى. وفيما هى غارقة فيه؛ سمعت الدكتور وهو يحييهن، وصوت الحماة يعلو بالصراخ:

ـ آه يا دكتور، أى مصيبة هذه التى حلت بنا!

ـ اهدئى يا سيدتى، اهدئى ـ رد عليها الطبيب.

أطلت الروح على غرفة المتوفى. هناك، وحول السرير، تكومت النساء. والقسيس يتلو صلواته عند قدميه. قاست الروح المسافة وقفزت بسهولة لم تكن تعرف أنها تمتلكها. وهبطت على الوسادة مثل نفخة هواء، أو حيوان غريب قادر على أن يتحرك دون أن يصدر صوتاً، ولا أن يتمكن أحد من رؤيته. وكان فم دون داميان لا يزال مفتوحاً فتحة صغيرة، وكان بارداً برودة الجليد، لكن ذلك لا أهمية له؛ فقد تسللت الروح إلى داخل الفم، ثم بدأت تدفع أطرافها بقوة لتستعيد مكانها.

وكانت لا تزال تمكن لنفسها من الاستقرار كي تحل في الجسد عندما سمعت الدكتور يتحدث إلى الحماة:

- لحظة واحدة، يا سيدتي، من فضلك.

استطاعت الروح أن ترى الدكتور بالرغم من عدم وضوح الرؤية بدقة. اقترب الطبيب من جسد دون داميان وأمسك بمعصمه، بدا عليه القلق والارتباك، انحنى بوجهه على صدره وأسنده عليه لبرهة، وعندئذ فتح حقيبته وأخرج سماعته. وبتأن بالغ ثبت طرفي السماعة في أذنيه، ووضع قرص السماعة فوق الصدر، فوق المكان الذي يوجد فيه قلب دون داميان. وتزايد اهتمامه أكثر، فرفع السماعة وركنها جانباً. وأخرج حقنةً وأمر الممرضة أن تملأها، فيما كان يربط قطعة خرطوم رفيع من المطاط حول ذراع دون داميان فوق الكوع. كان يتصرف بمزاج ساحر على وشك أن يؤدي خدعة مثيرة، وعلى ما يبدو أن هذه التحضيرات تسببت في إزعاج الخادمة العجوز فتساءلت:

- لكن لِمَ تفعل هذا كله إذا كان هذا المسكين قد مات؟

نظر إليها الطبيب بتعالٍ، وقال موجهاً الكلام إليها، دون أن تكون هي وحدها المقصودة بأن تسمعه، بل كل من يسمع، وفوق كل شيء زوجة وحماة دون داميان.

- يا سيدتي، الطب هو الطب. وواجبي هو أن أعمل أقصى ما يمكنني حتى أعيد الحياة إلى دون داميان. فأرواح حلوة مثل روحه لا تأتي كل يوم، ولا يمكن أن يُترك ليموت حتى نبذل أقصى ما في وسعنا.

هذا الكلام المختصر، الذى قيل في هدوء شديد، وبعظمة، قلب حال الزوجة، ولم يكن من الصعب أن يلاحَظ لمعانٌ باردٌ في عينيها، ورعشة شديدة في صوتها، وهى تسأل:

ـ لكن أليس هو بميت؟

كانت الروح قد حلت بالفعل بالكامل في الجسد، وفقط كانت هناك أطراف ثلاثة تتلمس مكانها إلى أوردة شاخت، ولم تكن تسكنها من سنوات. والانتباه الذى أولته هذه الأطراف لتوجهها لأماكنها الصحيحة، لم يمنعها في الحقيقة من سماع ذلك السؤال المزعج، حيث لم يكن من الواجب أن يُسأل، ومع ذلك فقد لاحظت الفضول من اللهجة التى طرحت بها الزوجة السؤال.

لم يجب الطبيب على السؤال. أمسك بذراع دون داميان وبدأ يدلكه براحة يده. في ذلك الوقت أخذت الروح تحس بأن حرارة الحياة أتت لتحتويها وتتخللها لتملأ الشرايين التى شاخت وكانت قد غادرتها هرباً من الحرق. وعندئذ، وفى وقت واحد مع بدء انبعاث هذه الحرارة، كان الطبيب يغرس إبرة الحقنة في أحد الأوردة بالذراع، ويفك قطعة الخرطوم المطاطى من فوق الكوع، ويبدأ في رفع سن إبرة الحقنة شيئاً فشيئاً. وبدأت موجات خفيفة من حرارة الحياة تصعد إلى جلد دون داميان. وهمهم القسيس:

ـ معجزة، يا سيدى، معجزة!

ثم فجأة، وأمام هذه القيامة من الموت، شحب وجه القسيس، وأطلق لخياله العنان؛ إذ أصبح التبرع لبناء الكنيسة، ولابد، شيئاً مؤكداً. وإذاً كيف يمكن لدون داميان أن ينكر مساعدته التي قدمها له، وفي فترة أيام النقاهة، كيف رأى عودته إلى الحياة مرةً أخرى، بعدما صلى من أجل هذه المعجزة؟ "إن الرب التفت إلى توسلاتي وأخرجك من القبر يا دون داميان". هذا ما قاله.

وفجأة أيضاً أحست الزوجة بأن عقلها قد انمحى منه كل شيء، فنظرت بضيق إلى وجه الزوج واستدارت راجعة إلى أمها. كانت كلتاهما مصعوقتين، ومصابتين بالخرس، ومفزوعتين وممتلئتين رهبة.

لكن الطبيب ظل مبتسماً، راضياً تماماً عن نفسه، على الرغم من أنه يحاول ألا يبدي ذلك.

ـ أي، نعم لقد أنقذ، الشكر للرب ولحضرتك!ـ هللت الخادمة العجوز في الحال، وعيناها ممتلئتان بالدموع من شدة الانفعال، ممسكة بيد الطبيب، وهي تؤكد له:

ـ لقد أُنقذ، ورُدت له الحياة! آي. إن دون داميان لن يجد ما يكافئك به يا سيدي!

بالضبط، ذلك ما كان يفكر فيه الطبيب؛ فيما لدى دون داميان مما هو أكثر من اللازم ليكافئه به، لكنه قال شيئاً آخر، قال:

ـ حتى لو كان لا يملك ما يكافئني به، كنت سأقوم بما قمت به. لأن هذا واجبي نحو المجتمع، أن أنقذ روحاً حلوة مثل روحه.

كان يوجه حديثه إلى الخادمة العجوز، لكنه، وللمرة الثانية، كان يقصد بكلامه الآخرين، على أمل أنهم سوف يرددونها أمام الرجل المريض حالما يتحسن فيعمل بنصيحتهم.

لقد أرهقت روح دون داميان من كثرة الأكاذيب التي لا نهاية لها، فقررت أن تنام. وبعدها، ندت عنه تنهيدة واهنة ورأسه تتحرك فوق الوسادة، وقال الدكتور:

ـ والآن، فإنه سيستغرق في النوم لعدة ساعات، ولابد له أن يرتاح تماماً.

وحتى يضرب لهم مثلاً طيباً يقتدون به، إذ يتعلمون منه كيف يوفرون الراحة لدون داميان؛ تسلل خارجاً من الغرفة، وهو يمشي على أطراف أصابع قدميه.

خورخي لويس بورخيس (الأرجنتين)

قصة المحارب والأسيرة

خورخي لويس بورخيس:

وُلد بالأرجنتين لعائلة احتلت مكانة بارزة لثقافتها الراقية ولجذورها الممتدة بعمق في تاريخ الأرجنتين، إذ إن عديداً من أسلافه هم أبطال في تاريخ حروبها. درس في بوينوس أيرس، وكشف عن اهتمام مبكر باللغات والآداب الأجنبية، ثم سافر إلى سويسرا ليكمل دراساته العليا، وقام برحلات متعددة في أرجاء أوربا، ثم درس في كامبردج، وسافر إلى إسبانيا ليقضي بها ثلاث سنوات، ثم رجع إلى بيونس أيرس في 1973. شارك في تأسيس مجلة "الموشور" الأدبية، ثم بدأ في نشر أشعاره التي كشف فيها عن نزوع إلى التجريب، وشارك بكتاباته وحواراته شعراء الطليعة الأوربية. وأصدر عام 1925 ديوان "القمر من الأمام"، ثم ديوان "دفاتر سان مارتين" 1929، ووضعته أعماله الشعرية في طليعة الشعراء الذين يكتبون بالإسبانية.

وعمل بالمكتبة الوطنية إبان حكم بيرون، وبعد سقوط حكمه عُين مديراً لها، فضلاً عن عمله كمحاضر عن الأدب الأنجلوسكسوني، وبجدد نشط ومتحمس للاتجاهات الأدبية الحديثة، كما كان مترجماً قدم أعمالاً لوليم فوكنر، وفرجينيا ولف، وكافكا. وكان ناقداً نافذ البصيرة في دراساته ومقالاته التى صدرت في كتابين هما "تساؤلات: 1925"، "حجم الأمل الذى أمتلكه: 1956"، ثم قدم نفسه في النهاية كواحد من أهم كتاب القصة القصيرة، قدم منها:

"تاريخ العار العالمى" (1935)، "تاريخ الأبدية" (1936)، "قصص" (1944)، "الحديقة ذات الطرق المتشعبة" (1944)، "الألف" (1949)، "المتاهات" (1962)، "أبحاث أخرى" (1964)، "كائنات متخيلة" (1969)، "تحقيق برودى" (1970)، "ذهب النمور" (1972)، "كتاب الرمل" (1975).

وكان قد نشر ترجمته الذاتية عام 1967.

فى صفحة 278 من كتاب الشعر (باريس 1942)، لخص كروتشه نصاً لاتينياً للمؤرخ بابلو الشماس، يحكى فيه عن مصيره، والاستشهاد بما هو منقوش على شاهد قبر دروكتولفت، إشادة ببطولته. كلاهما أثرا بشكل خاص في مشاعرى، وفيما بعد أدركت السبب. فقد كان دروكتولفت محارباً من لومبارديا ومشاركاً في حصار رافينا، لكنه انشق على رفاقه، ومات دفاعاً عن المدينة التى كان- من قبل- ضمن مَن هاجموها. ودفنه أهل رافينا في أحد معابدهم وأقاموا شاهداً على قبره، ونقشوا عليه أنهم يشهدون بفضله عليهم، ويشعرون بالامتنان له، وخصوصاً للتناقض الواضح واللافت للنظر بين الملامح الخشنة لذلك البربرى وبساطته وطيبته:

Terribilis Visu Facies mente benignus
Longaque robusto pectores barbafuit[1].

[1] نقل جيبون (فى كتابه "سقوط الإمبراطورية الرومانية"، ص XLV) هذه الأبيات.

(وجهٌ مرعبٌ للرؤية   وودودٌ للعقل
كان ذا لحية طويلة   وصدر صلد كالبلوط)

هكذا كانت قصة ومصير دروكتولفت، هذا البربرى الذى مات دفاعاً عن روما، أو هكذا يدل المقطع الذى استخلصه بابلو الشماس.

وأنا لا أعرف حتى الزمن الذى وقعت الأحداث فيه؛ أكانت في أواسط القرن السادس حين اجتاح اللومبارديون سهول إيطاليا وخربوها، أم في القرن الثامن قبل استسلام رافينا؟

نحن نتخيل ذلك (وهذا ليس عملاً تاريخياً).

نتخيل التفرد الكامن والدائم تحت السطح لدروكتولفت، والذى لا يعود الى شخص دروكتولفت، وهو كان متفرداً بلا شك ولا يمكن سبر غوره (وكل الأشخاص المتفردين هم على هذه الشاكلة)، لكن العنصر المثالى الذى جُبِلَ منه جاء من آخرين كثيرين مثله خلقوا هذا التقليد، والذى هو فعلٌ للنسيان وللتذكُر. وعبر الجغرافيا الموحشة للغابات والمستنقعات، حملته الحروب الى إيطاليا من ضفاف نهر الدانوب ومن جبال الألب.. ربما لم يكن يعرف أنه كان ذاهباً الى الجنوب، وربما لم يكن يعرف أنه يحارب ضد الشعب الرومانى. وربما آمن بالمذهب الأريوسى*، ولكن المطابق أكثر لتخيله لمكان على الأرض، ونموذجه المحبوب هو قبيلة في عربات تجرها الأبقار أو آلهة الحرب والرعد، والتى كانت عبارة

* مذهب هرطقى يعد خروجاً على الديانة المسيحية، إذ يزعم أن مجد الابن هو انعكاس لقدسية الأب.

عن تماثيل من الخشب ترتدى أثواباً من القماش مرصعة بالعملات المعدنية والأساور، وجاءت من الغابات التى لا مهرب منها ومن الخنازير البرية، والثيران البرية.

كان أبيض اللون، متحمساً وشجاعاً، وسليم الطوية، شديد الصرامة والولاء لقائده، ولقبيلته لا للعالم. لقد حملته الحروب إلى رافينا، وهناك رأى ما لم يره في حياته، وما لم يكن قد رآه بهذا الكمال أبداً: رأى الدنيا في وضح النهار، بأشجار السرو وتماثيل المرمر. رأى ذلك كله دفعةً واحدة، والذى كان- برغم كثرته أو الفوضى فيه-: مدينة مرئية. أنشئت بتنسيق ونظام تم تصميمه بميادين واسعة تتسع للتماثيل، والمعابد، والحدائق، والمساكن، والمدرجات، والأوانى الخزفية بالغة الضخامة، والأعمدة ذات التيجان، ومساحات من الأرض الفضاء المقسمة بأضلاع متساوية ومفتوحة على السماء، وما من أبنية عليها. تلك الصروح والعمارة هى التى أثرت فيه (وأنا أدرك ذلك) كأعمال جميلة. ولقد تأثر بها، كما لابد وأنها ستؤثر فينا الآن. ماكينة هائلة تعمل أجزاؤها المصممة بشكل معقد، والتى نجهل الغرض منها، لكن من تصميمها يمكنك التكهن بأن وراءه عقل خالد. ربما كان يكفيه أن يرى قوساً واحداً، وكتابة محفورة فوقه لا يمكن إدراك فحواها بحروف رومانية خالدة. وفجأةً فقد القدرة على الرؤية؛ ثم استعادها بذلك الإلهام: إنها المدينة. عرف أنه فيها يمكن أن يكون كلباً، أو طفلاً، وأنه لن يرقى حتى ليكون مبتدئاً في فك طلاسمها ليمكنه فهمها، لكنه أدرك أيضاً أنها أعلى قدراً من آلهته، ومن يمين الولاء، ومن مستنقعات ألمانيا كلها.

وتخلى دروكتولفت عن كل ما يخصه، وقاتل مدافعاً عن رافينا، ومات، وعلى قبره حفروا الكلمات التى لم يكن ليفهمها:

Contemsit Caros, dum nos amatille, Parentes.
Hanc, Patriam reputans esse, Ravenna Sudm.

(كان يحتقر كل غال، ويحبنا كأقربائه.
ورافينا تلك، كانت بمثابة الوطن له).

لم يكن خائناً (فالخونة لم يكونوا عادةً مصدر إلهام لشواهد قبور حانية عليهم). كان رجلاً ملأ النور قلبه فتحول معتنقاً ديناً جديداً. وعندما تعاقبت واكتملت أجيال عديدة من اللومبارديين الذين جرَّموا المرتد الهارب إلى صفوف الأعداء، تصرفوا مثله، إذ صاروا إيطاليين، لومبارديين، وربما بعضاً من دمه- Aldiger- استطاع أن ينجب مَن أنجبوا اليجيرى...

تخمينات عديدة يمكن أن تنطبق على ما فعله دروكتولفت. وجهة نظرى هذه هى وجهات نظر الكثيرين، ولو كانت غير حقيقية كما حدث، فستصير مثلاً.

عندما قرأت قصة المحارب في كتاب كروتشه، أثارت مشاعرى بشكل خارق للعادة، وولَّدت لدىَّ انطباعاً لاستعادة أمر ما، حدث لى، ولو بصورة مختلفة. وسرعان ما فكرت في فرسان المغول الذين أرادوا أن يجعلوا من الصين إقليماً لا حدود له، من أجل الرعى، ثم أدركتهم الشيخوخة في المدن التى حلموا بتدميرها. لم تكن تلك الذكرى هى ما

كنت أريد أن أتذكره، أو أبحث عنه، لكنني- في النهاية- وجدتها: إنها القصة التى سمعتها مرةً من جدتى الإنجليزية، التى ماتت.

ففى عام 1872، كان جَدّى بورخيس رئيساً لحرس الحدود الشمالية والغربية لبوينوس أيريس وسور دى سانتاق. كانت القيادة في جونين، التى تبعد أكثر من أربعة أو خمسة فراسخ. وبالمثل، كان كل حصن يبعد عن الأخر في سلسلة الحصون الأبعد مدى، والتى كانت تسمى حينئذ "البامبا"، وأيضاً: الأراضى الجوانية. وذات مرة، علّقت جدتى على قدَرها بطريقة يختلط فيها التعجب بالسخرية، بوصفها إنجليزية منفية في بلاد نهاية العالم هذه؛ فقالوا لها إنها ليست الوحيدة في ذلك. وبعد ذلك بشهور، نبهوها الى وجود فتاة هندية، تلك الفتاة التى عبرت أرض الميدان بخطًى بطيئة؛ كانت ترتدى عباءتين مُزركشتين وتمضى حافية القدمين، وكانت خصلات شعرها شقراء. وقال لها أحد الجنود إن سيدة إنجليزية أخرى تحب أن تتكلم معها. وافقت المرأة ودخلت إلى القيادة بلا خوف، بل دون أن يقلقها ذلك. كانت ذات وجه نحاسى، مزين بلا إتقان بألوان بدائية، ولون العينين من ذلك اللون المنفّر حتى إن الإنجليز كانوا يسمونه الأزرق الرصاصى؛ أما جسدها فكان رشيقاً أشبه بجسد أنثى الأيل، واليدان قويتان ناتئتا العظام.

كانت قادمة من الصحراء، من الأراضى الجوانية، وكل شىء بدا لها صغيراً: الأبواب، الجدران، الأثاث.

ربما أحست المرأتان للحظة أنهما أختان؛ كانتا بعيدتين عن جزيرتهما الحبيبة، وموجودتين في بلاد لا يصدق الإنسان أنها موجودة. وعبّرت

جدتي لها بسؤال ما، وأجابتها الأخرى بصعوبة وهي تبحث عن الكلمات وتكررها، كما لو كانت سَكرَى بطعمها القديم؛ فقد مضت عليها خمسة عشر عاماً لم تتكلم فيها لغة وطنها، وليس من السهل استعادتها. قالت إنها من يوركشَيِّر، وإن أبويها هاجرا إلى بوينوس أيريس، وقد فقدتهما في غارة من غارات الهنود الحمر الذين خطفوها، وإنها الآن زوجة لزعيم القبيلة، الذى أنجبت له ولدين، وإنه كان شجاعاً جداً. ذلك ما قالته بإنجليزية ركيكة مختلطة بلغة الهنود الحمر في أراوكانو*، أو لغة البامبا.

وفى خلفية ما تحكيه، كانت تُلمح إلى حياة واقعية، خيام الهنود الحمر المصنوعة من جلود الخيول، والنيران الموقدة يلتمسون الدفء حولها أو الاستضاءة بها من البَعر والرَّوث، ولائم اللحم المشوى الشائط أو الأحشاء النيئة، التحركات بتكتم شديد في الفجر، مهاجمة الحظائر، صيحات الحرب والسلب والنهب. الإثراء السريع من السطو على المزارع بالفرسان العراة، تعدد الزوجات. الرائحة الكريهة، وأعمال السحر.

لقد انحطت امرأة إنجليزية لهذا الدَّرك من البربرية بشكل مثير للشفقة والاستنكار. وقدمت جدتى طلباً للقاضي حتى لا تعود، وأقسمت أن تحميها، وأقسمت أن تنقذ أولادها، لكن المرأة الأخرى ردت عليها بأنها

---

* araucano نسبة إلى أراوكانو شيلي، وإلى سكانها من الهنود الحمر، أو إلى لغتهم.

سعيدة، ورجعت في تلك الليلة إلى الصحراء. وفرانثيسكو بورخيس مات بعد ذلك بقليل في انقلاب 74.

ربما في ذلك الحين، كان باستطاعة جدتي أن تدرك إلى أي حد كانت المرأة الأخرى متهورة؛ فقد تحولت- في هذه القارة التي لا ترحم- إلى امرأة فظيعة، اختارت أن يكون مصيرها الضياع.

في تلك السنين كلها، كانت الهندية الشقراء قد اعتادت أن تأتي إلى محلات البقالة في جونين، أو من فورتي لا باي لتتاجر في السلع الرخيصة والمعيبة.

لم تحضر منذ الحديث الذي جرى مع جدتي، ومع ذلك رأتا بعضهما مرةً أخرى.

كانت جدتي قد خرجت للصيد في أحد المراعي، بالقرب من المستنقعات، وكان رجل قد ذبح نعجة. وكما لو كان ذلك يجري في حلم، مرت به الهندية وهي راكبة فوق حصان، فقفزت من فوقه ورمت بنفسها على الأرض، وراحت تشرب الدم الساخن. لا أعرف ما إذا كان ما فعلته قد فعلته لأنها بالفعل لا تعرف أن تفعل ذلك بطريقة أخرى، أم أن ذلك كان مثل صراع وإشارة لشيء ما.

ألف وثلاثمائة عام، والمحيط يتوسط بين مصير الأسيرة ومصير دروكتولفت؛ فالاثنان الآن متساويان، لا يمكن استعادتهما. وصورة البربري الذي تبنى قضية رافينا، وصورة المرأة الأوربية التي اختارت الصحراء يمكن أن تبدوا متناقضتين. ومع ذلك، فبالنسبة للاثنين، فقد

خلب لبهما سر قوى، اندفاع أبعد غوراً من أية حسابات بالعقل أو أى اعتبار. واستسلم الاثنان لهذا الاندفاع الذى لم يدركاه على وجه التحديد. وبالصدفة، فالحكاية التى أفضلها، كانت حكاية فريدة، وجه تلك العملة وظهرها كانا، عند الله، هما الشىء نفسه.

•

(إلى أولريكه فون كولمان)

لويسا بالنثويلا (الأرجنتين)

المُراقِبُــون

لويسا بالنثويلا:

واحـدة مـن أكثـر الكاتبـات الأرجنتينيـات أهميـةً في الوقـت الحاضر. ولدت في بوينوس أيريس. ومنذ عام 1979ـ 1989، كانت تعيش في نيويورك، حيث كانت تعمل ككاتبة وتُلقي محاضرات في جامعات كولومبيا ونيويورك. حصلت على منحة مـن فـولبرات (1969ـ 1970)، ثم منحـة مـن جوجنـهام الأمريكية 1983. ومنذ 1972ـ 1974، عاشت في المكسيك، وبـاريس، وبرشـلونة. وقـد نفيـت إلى الولايـات المتحـدة في 1979. وتعـيش الآن في بوينـوس أيـريس، ولهـا عمـود في صحيفة "الوطن". أصدرت ست روايات نذكر منها: "عليك أن تبتسم"، "القط المؤثر"، "كما في الحرب"، "ذيل السحلية"، "رواية سوداء مع الأرجنتين"، "واقع وطني من السرير". كما أصـدرت ثمـاني مجموعـات قصـصية منـها: "المهرطقـون"، "هنـا

تجرى أمور غريبة"، "حيث تعيش النسور"، "تغيير الأسلحة"؛ وقد صدرت كلها في مجلد "قصص قصيرة كاملة وواحدة زيادة".

تُرجمت أعمال لويسا بالنثويلا الى عدة لغات: الإنجليزية، والفرنسية، والبرتغالية، واليابانية والألمانية والهولندية والكرواتية.

مسكين خُوان! ففي ذلك اليوم قبضت عليه الشرطة السرية، ولم يستطع أن يعمل حساباً لما اعتقده بأن الحظ إنما يبتسم له، فإذا به- على العكس- لعنةٌ نُكب بها. فهذه الأمور تحدث للإنسان بقدر ما لا يكون حريصاً. ومثلما سمعتهم، فالمرء يتهاون كثيراً، شأن خواشيتو حين تخلى عن حرصه حين وجد نفسه في قمة الفرح- وهو يحس بانفعال شديد- حين وصل إليه عن طريق وسيط غير موثوق به عنوان ماريانا الجديد، الآن في باريس. وهكذا أمكنه أن يعتقد أنها لم تنسه. عندئذٍ، جلس أمام المنضدة دون أن يفكر مرتين، وكتب لها خطاباً؛ ذلك الخطاب نفسه هو الذى كان يحُول بينه وبين أن يُركّز في عمله طوال اليوم، ولم يدعه ينام عندما حل الليل (ما الذى وضعه في هذا الخطاب، ما الذى سيبقى مثبتاً على صفحة تلك الورقة التى أرسلها إلى ماريانا؟).

يعرف خوان أنه لن تكون هناك مشكلة بسبب الخطاب، فالمكتوب بالخطاب ليس به ما يستوجب اللوم، وليس به ما قد يسبب ضرراً. ولكن ماذا عن الطرف الآخر؟ فهو يعرف أيضاً أنه- بالنسبة للخطابات-

فهم يفتشونها بالتجسس عليها، وأثر البصمات فوقها (يتحسسونها)، ويقرأون ما بين السطور وأصغر علامات الترقيم والبقع التى تحدث بلا قصد. يعرف أن الخطابات تمر من يد إلى يد في المكاتب الماثلة للرقابة، وتخضع لكل أنواع الاختبارات، وقليلة هى الخطابات التى تجتاز الامتحان، وتستطيع أن تواصل طريقها إلى النهاية. وهذه المسألة تستغرق بشكل عام شهوراً وسنوات، فيما لو تعقدت الأمور، زمناً طويلاً تتعرض خلاله بالمثل للخطر حريةُ وربما حياة لا مَن أرسل الخطاب فحسب، بل أيضاً المرسَل إليه. وذلك هو ما كان يملأ قلب صاحبنا خوان بنويات من الهلع الشديد: فكرة أن يتسبب لماريانا بالأذى، وهي في باريس. وبالنسبة لماريانا، فلا أقل من أن تشعر بالأمان التام، والاطمئنان التام هناك، حيث إنها كانت تحلم دائماً بالحياة فيها. لكنه يعرف أن الرئاسة السرية العليا للرقابة تنشط بعملها في كل مكان من العالم، ويحصلون على مبلغ غير قليل من سعر تذاكر الطيران في رحلات سفرهم، وبذلك فلا شيء يمنعهم من أن يصلوا إلى العشوائيات الخفية في باريس، ويخطفون ماريانا ويعتقلونها، ويعودون إلى بيوتهم راضين عن رسالتهم النبيلة في هذا البلد.

عليك عندئذٍ أن تتغلب عليهم منذ البداية، عليك أن تفعل ما يفعله الجميع: تعطيل هذه الآلية، بأن تضع بين تروس الآلة حفنات من الرمل، وهو ما يعنى أن عليك أن تتوصل إلى أصل المشكلة حتى تتمكن من احتوائها.

ذهب خوان- بهذا القصد المتعمَّد- ليطلب العمل كرقيب، ليس لشعور لديه بأنه مدعو للقيام بواجبٍ ما، مثل البعض القليل من الناس، ولا لأنه في حاجة ماسة إلى الوظيفة مثل آخرين، لا. لقد طلب الالتحاق بالعمل في الرقابة كمحاولة منه لقطع الطريق على مسار خطابه شخصياً. فكرة ليست ميلاً للتجديد، بل لتمنحه الطمأنينة بعد ما فعله. وألحقوه بالعمل فوراً، لأنهم- كل يوم- يعانون من نقص الموظفين في الرقابة، وليست هناك تعقيدات متكلفة فيما يطلبه الموظفون السابقون.

فى الرئاسات العليا المشرفة على الرقابة، لا يُسقطون من حساباتهم جهلهم بالدوافع الخفية لدى الشخص بأكثر مما ذكره عن رغبته في الالتحاق بالعمل، عند توزيعه على الأقسام. لكن ولا هذا أيضاً كان ضمن شروط وضعه بشكل أكثر صرامة وشامل. لماذا؟ لأنهم يعرفون صعوبته التى تجعل هؤلاء المساكين عديمى الخبرة يتوصلون إلى كشف الخطاب الذى يبحثون عنه. وفى حالة فشلهم؟ ما أهمية أن يكون لديهم خطاب أو اثنان ينجحان في اجتياز الحاجز أمام كل الخطابات الأخرى التي يمنعها من أن تطير؟ وهكذا، وبدون أمنيات مؤكدة، التحق صاحبنا خوان بقسم الرقابة الخاص بالبلاغات.

أما عن المبنى، فإنه يبدو- عند النظر إليه من الخارج- بشكل احتفالى يبعث على البهجة، بسبب واجهاته الزجاجية بلونها الدخانى، التى تعكس منظر السماء؛ جو على العكس تماماً من الجو العَبوس الذى يسود بداخله. وشيئاً فشيئاً، بدأ خوان يعتاد على جو التركيز الذى يتطلبه العمل الجديد، ويعرف ما عليه أن يفعله بأقصى ما يمكن من أجل

خطابه- أى من أجل ماريانا- مما جعله يتحاشى القلق. ولا حتى الانشغال، عندما عينوه، في الشهر الأول من التحاقه بالعمل، في القسم (ك) حيث إنهم- ومع عمل كل الاحتياطات التى لا تُحصى- يفتحون مظروفات الخطابات ليتحققوا من أنها لم تُقفل على متفجرات ما.

وقد تأكد أن زميلاً له، في اليوم الثالث، حدث أن أطار خطابٌ يده اليمنى وشوّه وجهه، إلا أن رئيس القسم زعم أن ذلك حدث فقط لعدم تحوط الموظف المصاب، وأن على خوان والآخرين أن يواصلوا عملهم كما كانوا من قبل، على الرغم من القلق الذى انتابهم. وزميلٌ آخر من العمل حاول- في ساعة الخروج- أن ينظم إضراباً يطلبون به زيادة الراتب مقابل مخاطر العمل، لكن خوان لم ينضم للإضراب. وبعد ما فكر للحظة راح إلى المسئول الكبير، وأمامه، أبلغ عنه، ساعياً بذلك إلى أن يفوز بترقية.

مرةً واحدةً لا تخلق عادة، قال خوان ذلك لنفسه عند خروجه من مكتب الرئيس. وعندما رقوه إلى قسم "خ"، حيث يتصفحون الخطابات باحتياطات لا حد لها ليتحققوا منها، وما إذا كانت مقفلةً على غبار سام، أحس بأنه صعد درجةً، ويمكنه إذاً أن يرجع إلى عاداته القويمة في ألا يتدخل في أمور لا تخصه.

ومن قسم "خ"، ومكافأةً له على فضائله في عمله، سرعان ما ترقّى في مواقع الوظيفة حتى وصل إلى قسم "إ"، حيث صار العمل بالفعل أكثر إثارةً للاهتمام، حيث بدأ يطّلع على الخطابات ويقرأها ويحلل محتواها. وأسعده أنه في هذا القسم كان باستطاعته أن تنطوى آماله على

أن تقع يده على خطابه هو المتجه إلى ماريانا، والذي- بحسابه للزمن الذي قطعه- لابد أنه ينتقل أكثر أو أقل سرعة في هذا القسم الأعلى، بعد أن تم تصديره من الأقسام الملحقة الأخرى.

وشيئاً فشيئاً، بدأت الأيام تتوالى عندما أخذ عمله يرجع به إلى اللهفة على الترقي، التي قضت في دقائق على المهمة النبيلة التي جاءت به إلى مكاتب الرقابة. أيامٌ يمر فيها بالحبر الأحمر على طول الفقرات، ويرمي بلا رحمة خطابات كثيرة في سلة المحكوم عليهم بالهلاك. أيامٌ من الرعب أمام الأشكال الرقيقة الذكية والغامضة التي يعثر الناس عليها لتتحول إلى رسالة لقلب نظام الحكم؛ أيامٌ من شحذ حدسه ليعثر خلف العبارة البسيطة "الجو غير مستقر"، أو "الأسعار مستمرة في الارتفاع حتى السماء"، على إشارة من يدٍ ما تكشف عن نيتها الخفية إسقاط النظام.

ولِهِمَّته وغيرته على العمل من جانبه، سرعان ما قدروه بترقية. ولا ندري ما إذا كانت قد جعلته أكثر سعادة. وفي القسم "ب"، كان حجم الخطابات التي وصلت إليه ضئيلاً- ونادرة جداً تلك التي اجتازت مراحل الفرز السابقة. لكنه- ليعوض ذلك- كان عليه أن يقرأها لمرات عديدة، ويمررها تحت عدسة مكبرة، مفتشاً عن البنط الصغير جداً بالميكروسكوب الإلكتروني، ومرهفاً حاسة الشم بشدة، حتى إذا ما عاد إلى بيته- في الليل- أحس بأنه مستنفد القوى، ولم يمكنه سوى أن يسخن قليلاً من الشوربة، ويأكل بعض حبات من الفاكهة، ويرمي نفسه في السرير لينام، وهو يحس بالرضا لقيامه بواجبه على أكمل وجه. أما التي لم تكن مطمئنة، فهي أمه الطيبة التي تحاول- بلا نجاح- أن تهديه إلى

الطريق القويم. قالت له: على الرغم من أن ما تقوله ليس مؤكداً، لُولا طلبتك، وتقول إنها والبنات في البار، وإنهن يفتقدنك، وإنهن في انتظارك. لكن خوان لا يريد أن يعرف شيئاً مما يجعله يفرط فيه، فكل أشكال اللهو يمكنها أن تفقده حدة حواسه وهو يحتاجها متيقظة، مرهفة، متنبهة، رهيفة، لكي يظل رقيباً في كامل لياقته ويكشف الخدع. فعمله كان عملاً وطنياً، ومن أجل هذا العمل السامي فهو ينكر ذاته.

صارت سلته، فجأةً، سلة الخطابات المحكوم عليها بالهلاك، أكثر السلال امتلاءً وأيضاً أكثر ذكاءً من كل السلال بقسم الرقابة. كانت ممتلئةً حتى الحافة، وهو يشعر الآن بالزهو بنفسه. كان في قمة زهوه لمعرفته بأنه في النهاية وجد طريقه الحقيقي، عندما وصل إلى يديه خطابه هو الموجه إلى ماريانا. وكما كان طبيعيًا أن حكم عليه بالهلاك بلا أدنى إحساس بالاشمئزاز من نفسه، كان طبيعياً أيضاً أنه لم يستطع أن يحول بينهم وبين أن يعدموه في الفجر رميًا بالرصاص، ضحيةً أكثر لتفانية في العمل.

خوان كارلوس أونيتي (الأوروجواي)

سَانتَـا رُوسَــا

خوان كارلوس أونيتي (1909ـ 1994):

كاتب أوروجواني ولد في ضاحية مونتيفيديو الجنوبية أول يوليو 1909. هجر الدراسة في المرحلة الثانوية، وعمل ساعياً للبريد ثم بائعاً، وعاملاً. وفي عام 1929، التحق بالكتابة في مجلة "تيخرا"، وحاول السفر إلى الاتحاد السوفيتي ليتعرف على البلد الذى كانت تُبنى فيه الاشتراكية. تزوج وسافر إلى الأرجنتين، وعمل في صحيفة كرتيكا.

نشر قصصاً قصيرة ورواية "زمن العناق" (1935)، ثم نشر روايته "البشر في بوينوس أيرس" في طبعة من 500 نسخة؛ ثم "أرض مشاع" (1941)، و"الحياة القصيرة" (1950)، وهى الرواية التى تأسست بها "سانتا ماريا" المدينة المتخيلة التى تجرى فيها معظم رواياته، مثل "ماكوندو" جابرييل جارثيا ماركيز، و"دكوما" لا خاون رولفو.

وعندما نشر قصته "الجحيم المريع"، فازت بالجائزة الوطنية للأدب (1959ـ1960). وفى عام 1963، حازت قصته "جاكوب والآخر" على الجائزة الثانية ضمن 3000 عمل أدبي في المسابقة. وفى عام 1967، جاء ترتيبه الثانى على بارجاس يوسا في الحصول على جائزة رومولو جاييجوس، فيما طالب بارجاس يوسا الفائز بأن تكون الجائزة من حق "أونيتى" عرفاناً بقيمته الأدبية.

وفى عام 1975، استقرت حياته في مدريد، وكانت آخر رواياته، والتى اعتبرها وصيته الأدبية هى "حين لا تكون هناك أهمية" (1993). وفى عام 1980، فاز بجائزة ثربانتس. ومات بمدريد في 30 مايو 1994.

قال عنه كارلوس فوينتوس، بكتابه "فى الرواية الأمريكية اللاتينية الجديدة": "إن روايات وقصص أونيتى القصيرة هى الأحجار التى شيدت حداثتنا"؛ وأضاف: "فى كل ما خلفه لنا من إبداع، يعطينا درساً في السرد الروائى الذكى، ومعرفة بالبناء، وبالحب الغامر للخيال الأدبى". ومثل ذلك أوضحه خوان رولفو، وجابرييل جارثيا ماركيث. أما أوكتابيو بات، فقد كتب بمناسبة منح جائزة ثربانتس لأونيتى: "يقال إن أمريكا اللاتينية قارة غنية بالمواد الأولية، والجنرالات، والزعماء، ولكن بإمكاننا اليوم أن نقول إنها أيضاً غنية بالشعراء والروائيين". أما خوليو كورتاثار، فقال عنه ببساطة: "إنه الروائى الأكبر في أمريكا اللاتينية".

"عالم مجنون"، كررتها المرأة مرةً أخرى كما لو كانت تقلدها بغرض الأثر السحرى لها. سمعتُها عبر الجدار الفاصل بيننا. وتخيلتُ شكل فمها وهو يتحرك أمام بخار الثلاجة البارد، وروائح الخضروات، أو وهى خلف الستارة بنية اللون، المعلقة بشكل ثابت لتحول بين شمس ما بعد الظهيرة وغرفة النوم، فتسبب العتمة في الفوضى التى أحدثها حالاً وصول الأثاث. تصنتّ شارد الذهن، ولم أشغل نفسى بما تقوله.

وبينما كان صوتها، خطواتها، ارتداؤها لقميص نومها، ذراعاها المكتنزتان كما أتخيلها، وهى تتحرك من المطبخ إلى غرفة النوم، ورجل يوافقها بشكل متكرر في سلسلة من الكلمات ذات المقطع الواحد، والمحملة فقط بتلميحاته المهينة، والانفعالات الحادة التى أبدتها المرأة بدورها وهى تتحرك. وقد اختلطت حركتها مرةً أخرى مع الأصوات المفاجئة لكل طقطقة صدرت من وطأة ثقلها في كل غرفة، وفى المسافة بين درجات السلم، وأركان البيت.

صعدت المرأة ثم هبطت إلى الغرفة الوحيدة بالشقة في الدور الثاني تصنتُ عليها وأنا في الحمام، فيما كنت أقف تحت الدُش محنياً رأسي، والدُش لا يصدر عنه صوت معظم الوقت. "إن قلبي يتقطع ويتناثر أشلاءً، أقسم بذلك"، قالت المرأة بصوت رتيب وملول مستخفةً به ومتعمدةً إهانته، ممسكةً بأنفاسها عند نهاية كل جملة، كما لو أن هناك عائقًا يبرز بشكل دائم يقف حائلاً بينها وبين الاعتراف بشيء ما.

ـ أنا لن أذهب لأتوسل إليه، راكعةً على ركبتي، لقد حصل على ما يريده الآن؛ لكني أنا أيضاً لي كبريائي، ومع ذلك، فهذا يجرحني أكثر مما يجرحه.

قال الرجل مواسياً لها: "تعالي. تعالي".

تصنتُ لبرهة على سكون الشقة، في الوقت الذي كان يتعالى فيه صوت رنين مكعبات الثلج في الكأسين وهي تدور بسرعة فيهما. لابد أن الرجل كان خالعاً سترته، ولابد أنه متين البنيان، بوجه مولع بالشجار، وهي تُكشر بعصبية تعيسة، خائرة القوى والعرق يتفصد قطرات على شفتها العليا وعلى صدرها وما تحت رقبتها. وأنا في الجانب الآخر من الحاجز رفيع السُمك كنت أقف عارياً، تغطي جسدي قطرات الماء التي أحس بها وهي تجف دون أن أفكر في النقاط المنشفة، ناظراً ـ من وراء الباب ـ إلى الغرفة الكئيبة، حيث تتجمع الحرارة وتظل معلقة فوق الملاءة النظيفة على السرير.

اتجه تفكيري الآن إلى خيرترودس العزيزة، خيرترودس بساقيها الطويلتين، خيرترودس والندبة القديمة المبيضة ببطنها. سكون خيرترودس الذي يطن، وفي بعض الأحيان تبتلع مراراتها كما تبتلع ريقها. خيرترودس والوردة الذهبية الصغيرة على صدر فستانها في الحفل، خيرترودس التي تعرفتُ عليها بقلبي.

عندما عاد صوت المرأة، فكرتُ في المعاناة التي تُلم بالمرء جرَّاء النظر- بلا تأفف- إلى الندبة الجديدة التي لابد أنها موجودةٌ الآن بصدرها بقعةً مستديرة مختلطة، تشكلت بالمصادفة من عروق دامية. ربما، مع الوقت، سيتغير لونها إلى فوضى شاحبة لها اللون نفسه للندبة الأخرى، ناعمة ورقيقة، مثل التوقيع الذي حصلت عليه خيرترودس على بطنها، والذي استكشفتُه لمرات كثيرة بطرف لساني.

"إنه سيحطم قلبي"، هذا ما قالته المرأة في الناحية الأخرى من الباب.

"وربما لن أعود أنا نفس المرأة مرةً أخرى أبداً. وكم من مرة دفعني ريكاردو فيها للصراخ كما لو كنت امرأةً مجنونة، ثلاث سنوات بطولها، وما فعله بي طوال هذه السنوات ليس أسوأ من الأشياء التي فعلها بي من قبل. ولكن الآن، انتهى كل شيء".

لابد أنها في المطبخ جالسة القرفصاء أمام الثلاجة تفتش فيها، وتعرِّض وجهها وصدرها لهوائها البارد، المحمل بالرائحة الدهنية للخضار المجمد. "أنا لن أفعل شيئاً، حتى لو كان ذلك سيحطم قلبي. وحتى لو جاء زاحفاً على ركبتيه". "لا تقولي ذلك"، قال الرجل لها. لقد

تحرك دون أن يحدث جلبة، كما أعتقد، في طريقه إلى المطبخ، ممتد بذراع واحدة يكسوها الشعر بغزارة على حلق الباب والذراع الأخرى منثنية وهي تحمل الكأس. لابد أنه نظر إلى تحت، حيث جسم المرأة الجالسة القرفصاء. "لا تقولي ذلك. كل واحد منا يرتكب أخطاء. لو أنه، دعينا نقول، لو أن ريكاردو جاء يسألك..."

"في الحقيقة، أنا لا أعرف ماذا أقول له، صدقني. لقد عانيت كثيراً جداً بسببه"، هذا ما اعترفت به له. "ماذا لو شربنا كأسًا أخرى؟".

إنهما الآن في المطبخ، لأنني سمعت مكعبات الثلج تصطدم بجدار الكأسين قبل أن تغوص فيهما.

فتحتُ ماء الدُّش مرةً أخرى، وهززتُ كتفي تحت تدفق الماء، فيما كنتُ أفكر في الصباح، وقبل حوالى عشر ساعات، عندما كان الدكتور يقوم بحرص بإجراء الجراحة، أو ببتر الثدي الأيسر دفعةً واحدةً، وحرصه لا يقل عن حرص خيرترودس.

لابد أنه أحس برجفة المشرط في يده، وأحس كيف سرت حافة المشرط الحادة خلال نعومة الدهن، وبعد ذلك في الجسم الصلب الجامد المجاور له.

سخرت المرأة، ثم انفجرت في الضحك. وصلتني عبارتها مشوشة بسبب خرير ماء الدش. "لو تعرف كيف آكل عيشي من مرافقتي للرجال!"؛ وتحركت نحو غرفة النوم، وخبطت ضلفتي باب الشرفة. "ولكن قل لي، متى سيصل الإعصار الذي يهب قادماً باتجاه سانتا

روسا.. متى سيصل لى هنا؟". "من المحتمل أن يصل اليوم". قال الرجل ذلك، دون أن يواصل الحديث معها، ثم رفع صوته "لا تشغلى بالك، فسوف يهدأ الإعصار وينتهى قبل الفجر".

اكتشفتُ عندئذٍ أنى ـ منذ أول الأسبوع الأخير ـ وأنا منشغلٌ بالتفكير في نفس الشىء. وتذكرتُ انتظارى لمعجزة خفية، تلك المعجزة التى ستحمل لى تباشير قدوم الربيع. ظلت ذبابةٌ تطن لساعاتٍ طنينًا مضطربًا وصاخبًا يتخلل صوت ماء الدُش. وآخر ضوء يأتى من الشباك الصغير، نفضتُ الماء عني مثلما يفعل كلب، ثم ألقيتُ نظرةً على الجانب المعتم من الغرفة، حيث كان الحَر ينبض كمن وقع في فخ. ستنتهى الأمور، لكن من المستحيل أن تنتهي بكتابة سيناريو الفيلم الذى كان شتاين قد تحدث لىّ عنه، فيما كنتُ لا أتمالك نفسي في محاولة لنسيان هذا الثدي المقطوع، الذى فقد شكله الآن، وتمدد على منضدة العمليات مثل سمكة مفلطحة، مقدماً نفسه ككأس نبيذ. لم يكن ممكناً نسيانه، حتى لو حاولتُ بإصرار أكثر فأكثر، وكيف أنني كنت أمُص هذا الشيء والهو به، فيما كان عليه أن ينتظر الجميع. طائر السنونو النكرة انتقل في التو لى الشقة المجاورة.

الذبابة لا تزال تطن في الهواء المعطر برائحة صابون الحلاقة، وكل إنسان يعيش في بوينوس أيرس لحقته اللعنة لبقائه معي سواء أكانوا يعرفونه أو لا يعرفونه. يحدقون كالبلهاء تحت وطأة الحر الغريب. محاولاً أن يقتنص ولو لمحة من الربيع الوشيك، والإعصار المرعد قصير الأجل

كان عليه أن يجد طريقه من الساحل، ويحوّل المدينة إلى أرض خصبة، حيث ستطفو الأحداث بكاملها فجأةً، كمشهد يطفو من الذاكرة.

عادت المرأة والرجل إلى الغرفة مرةً أخرى؛ فصارا أبعد من أن يُتاح لي سماعهما؛ فعند مغادرتهما المطبخ كانت قد قالت له: "أقسم أنه لا جنون على وجه الأرض مثل ما نحن فيه".

قفلتُ الدُش آملاً أن تأتي الذبابة فأضربها ضربةً قاتلةً بالمنشفة، وأفعصها ملقياً بها في بالوعة التصريف. وذهبتُ إلى غرفة النوم عارياً، والماء يقطر من جسدي. ومن خلال شيش النافذة، رأيتُ المساء ينحدر إلى الظُلمة من ناحية الشمال. حسبتُ الثواني بين انبثاقات البرق الخاطفة، وتناولت قرصيْ نعناع احتفظت بهما في فمي، وألقيتُ بنفسي على السرير.

... ثديٌ مبتور. يمكن تخيل النُدبة كقَطع مشوه، اتخذ شكل كأس من المطاط مدعمة بحوائط سميكة، يحوي سائلاً متماسكاً لا يترجرج، وردي اللون بفقاقيع طافية على سطحه. ومن الممكن أن يعطي الانطباع بأنه سائل؛ لو جعلنا المصباح المسلط عليه يتأرجح إلى الوراء والأمام؛ وكذلك لو وضعنا في اعتبارنا الشكل الذي يمكن أن يبدو عليه خلال خمسة عشر يوماً بعد بتره، بطبقة رقيقة متجلدة من الجلد تمتد فوقه، شبه شفافة، بالغة الرقة لدرجة ألاّ يمتلك أحدٌ الجرأة لأن ينظر إليه لأكثر من برهة؛ فضلاً عن أن بوادر الكرمشة ستبدأ في الظهور، وستتغير، وتتخذ لها شكلاً ما. والآن، قد يكون من الممكن أن تنظر خلسةً إلى النُدبة؛ صدمة تعريتها في ليلة ما.

أتوقع أية إحباطات، إذ بأى شكل ستستعيد الأوضاع، وأية درجات من الاحمرار أو الابيضاض ستغطى مكان الثدى، أية معاناة ستقاسيها. ويوماً ما، وبالرغم من ذلك، ستستعيد خيرترودس ضحكتها ببال خالٍ وسعادة، ومن شرفتها- في فصل الربيع- ستنظر لى بثبات بعينيها المتألقتين، اللتين سوف تخفضهما على الفور، وتسمح بقليل من ملامح التحدى أن ترتسم على جانبى فمها.

عندئذٍ، ستحين لحظة يدى اليمنى. وقتٌ للهزل. سلسلة المداعبات المضحكة ستشق طريقها في الهواء تماماً، شكلٌ ومقاومة يجب ألا تكون هناك، ويجب ألا تكون منسية من أصابعى، وراحتى ستخشى أن تتفتح في شكلها أكثر من المعتاد وأطراف أصابعى ستلامس ما تحت السطح الزلق بلا وعد بالألفة، وستظل الغربة ماثلةً بالنسبة للندبة المستديرة. "أفهم أنها ليست بسبب حفل الرقص، بل لمجرد الفكرة التى أخذها عنها". هذا ما قالته المرأة في الناحية الأخرى من الجدار. قريبةٌ وتكاد تكون فوق رأسى.

وربما هى مثلى، رمت بنفسها على السرير بالوضع نفسه الذى أنا عليه، الوضع الذى يجعلنى أدفن نفسى لصق الحائط طوال النهار، وأخرج الجثة من قبرها عند حلول الليل، بالصرير البائس المستميت للزنبركات المرتدة؛ والرجل القصير الممتلئ بشاربه القصير الخشن، دائم السكر يحنى جسمه ويتلوى ألماً أو يتصبب عرقاً إلى جوار قدمى المرأة العاريتين. أسير خيال وقور. لابد أنه ينظر إليها، يوافقها، وهى لا تقول شيئاً. وأثناء ذلك، تدور عيناه، مفتونةً بالمسامير الحمراء المدقوقة في

الحائط، وأصابع قدميها القصيرتين التى لابد أنها تدق بها بإيقاع لا شعورى.

"يمكنك أن تتخيل عدم أهمية الرقص بالنسبة لى، الآن، وطوال عمرى، لم يحدث أن جُننت بالرقص. كنا نذهب معاً أنا وريكاردو، وأنا أقول لك بلا تردد، كما قلت له؛ إنه يتصرف كما يتصرف ابن أية عاهرة. كان يمكنه ببساطة أن يخبرنى بأنه لا يستطيع المجىء، أنا مشغول، أو لا أحس بالرغبة في المجىء، وإذا لم يكن يثق فىّ، فبمن إذاً، أخبرنى، يمكنه أن يثق؟ لا يمكن أن تُخدع المرأة أبداً، فالمرأة ليست بلهاء ليمكن خداعها. أحياناً ما تتظاهر بالبلاهة. نعم، هى تفعل ذلك في الغالب. لكن هذه ليست الحقيقة". وعلت ضحكتها دون أن تشوبها أية مرارة، خلال نوبة سعال. "يمكنني أن أذكر لك أسماءً، وربما انقلب على قفاه لو عرف ما الذى كنت أعرفه عنه، وأحتفظ به لنفسى، ليست لديه فكرة! ولكن قُل لى إن لم يكن ذلك شيئاً خاصاً، ليلة الكرنفال، والرقصة الأولى، تلك التى اعتدنا عليها، ثم تجىء الساعة الحادية عشرة، والثانية عشرة، والرجل "الجنتلمان" لا يظهر. لقد قُلت حتى للمرأة السمينة، لأننى أحسست بأن ذلك شىءٌ مخجل، ريكاردو لن يستطيع الإفلات حتى في وقت متأخر جداً، إننى أشعر بالأسف له، هل يمكنك أن تتخيل؛ لقد خسر في الوقت الذى كان الحظ معه، كنت سأصبح مثل مدام بومبادور، إلا أننى كنت سأرتدى ملابس الحداد وألبس باروكة بيضاء".

وانفجرت المرأة في ثلاث نوبات من الضحك؛ إلا أن ضحكها كان على العكس من اللهفة التي بدت في صوتها، والذي توقف بشكل غير متوقع ليضع النهاية لكل جملة. وبدا ذلك كما لو أنه تحفظٌ يطول به الوقت وبعدها ينهار فجأةً، يتهدج الصوت كحمحمة منهكة، المرأة السمينة، يا له من شيء بائس، كانت ساذجة وهي تبدي غضبها الشديد. لقد خسرت الليلة بسببي، وفي النهاية رحلت.

كان ضوء النهار قد انتشر في ذلك الوقت، عندما استيقظت وهي ما تزال جالسةً في ذلك المقعد الكبير. أنا لا أعرف ما إذا كنتُ قد رأيته أبداً، ذلك أننا كنا في شارع بلجرانو في بوينوس أيرس، بباروكتي وقد سقطت من فوق رأسي، وباقة زهور الياسمين الكبيرة على الأرض. كلتاهما بسبب الحر. كل شيء اقترب من نهايته. وبدا ذلك في الحقيقة كما لو كان استيقاظاً من النوم. وخيرترودس ترحل إلى هنا نصف ميتة. فكرتُ بأنها في طور النقاهة، لو سارت الأمور كلها بشكل طيب، بذلك الشذى الذي يثير النفور في الناحية الأخرى من الجدار الذي يبدو رهيفاً كورقة. ومع ذلك، فعندما سأراها غداً في المستشفى، إذا كانت ستسمع الكلام، وإذا تمكنت من رؤيتها، إذا تصورت أنها لن تموت حتى ذلك الحين، فعلى الأقل سوف أتمكن من أن أشد على يديها وأقول لها وأنا أبتسم إننا كنا جيراناً بالفعل، لأنها لو كانت تستطيع الكلام، أو تستطيع أن تسمعني، فلن تقاسي آلاماً شديدة، ولن يهمني كثيراً أن أمدها بالأخبار التي نقلها شخصٌ ما إلى باب الشقة الآخر، شقة "هـ". وسوف تبتسم، وستطرح الأسئلة، وتتحسن وتعود إلى البيت. واللحظة

الموعودة ستواتى يدى اليمنى، وشفتى، وكيانى كله، لحظة الواجب، والإشفاق، لأن البرهان الوحيد المقنع، والمصدر الوحيد للسعادة والثقة سأستطيع أن أمدها بهما، وسيكون أن تقوم من رقدتها وتنحنى فوق ثديها المبتور في الضوء الباهر، بوجهها وقد استعاد شبابه، بشهوته العارمة للقبلات، ويمضى بعنف، ويعنف هناك.

"إننى لا أتكلم فقط". المرأة كانت تتحدث الآن في الطُرقة. الآن تمضى الأمور إلى ما هو أفضل.

نهضتُ بجسمى الحرّان والجاف مطرقاً برأسى في القيظ ،ومضيت لأكشف الثقب الذى أختلس النظر منه في الباب الفاصل بينى وبينهم؛ "سوف ترين أن كل الجهود ضاعت بلا فائدة".

كرر الرجل كلامه بهدوء دون أن أتمكن من رؤيته، غير أننى رأيت المرأة. لم تكن ترتدى لباس الحمام، وبدلاً من ذلك كانت ترتدى فستاناً داكناً، فستان أسود محبوك على جسمها، وذراعاها البيضاوان كانتا عاريتين ومكتنزتين. وبينما كانت تواصل ابتساماتها للرجل الذى لم يَبْدُ لى منه سوى كتف رمادي وحافة قبعة داكنة فوق رأسه. وتردد صوتها كما لو كان ملفوفاً في قطن، مصحوباً برقة الألم. علا مرةً أخرى، ثم علا ثانيةً ليكرر أن لا شىء قد تغير. وهكذا سارت الأمور، وفى النهاية، ها هو الإعياء قد نال منك تماماً أو لم ينل منك.

خوسيه دونوسو (شيلي)

سـيِّدة

خُوسِيه دُونُوسو:

ولـد في سانتياجو بـشيلى عـام 1924، ونـشأ في أسـرة مـن الأطباء والمحامين. بعد دراسة الثانوية العامة تمرد على الانتظام في الدراسة، وقام برحلات عديدة للخارج، ثم عاد وواصل الدراسة في جامعتى شيلى، وبرنستون؛ ليعمل بعد ذلك أستاذاً في الجامعة الكاثوليكية بشيلى.

ينتمى للجيل الثانى من كتاب "El boom" وهى تسمية أطلقت على ثلاثة أجيال (أدبية، وليست عمرية) من كتاب أمريكا اللاتينية وهم الذين حازوا شهرة واسعة مدوية في وقت قصير. بدأت بالجيل الأول: جابرييل جارثيا ماركيث، كارلوس فوينتس، خوليو كورتاثار، ماريو بارجاس يوسا. ثم الجيل الثانى: خوان رولفو، أجوستو روا باسطوس، خوسيه دونوسو، خوسيه ليثما، جييرمو كابريرا انفاشى. ثم الجيل الثالث (جيل الشباب): فرناندو

دل باسو، جوستابوسانيث، سلبادور إليثوندو، أدريانو رينالدو أريناس، سلفادور جارمينديا، أدريانو جونثالث ليون، إنريك كونجرينس مارتين، ألفريدو بريثى إتشينك، دافيدبينياس، مانويل بويج، نستور سانشيث، خورخى إدواردز، إيزابيل الليندى.

حازت أعماله الروائية على الجائزة الوطنية للأدب في تشيلى، جائزة النقاد في إسبانيا، جائزة أفضل عمل روائى أجنبى في إيطاليا.

عالجت أعماله أزمة الحكم في شيلى منذ الخمسينيات، وعجز الطبقات السائدة عن إدارة الحكم لصالح الشعب الشيلى (رواية التتويج) ثم رواية (طائر الليل الداعر) ثم عالج أزمة المنفيين إبان حكم الدكتاتور بينوشيه (الحديقة المجاورة) ثم غربة المثقفين الذين نزحوا للشتات في المنفى هرباً من الحكم الدكتاتورى كما في رواية (حيث تذهب الأفيال لتموت).

من أعماله: "التتويج" (1957)، "هذا الأحد" (1960)، "مكان بلا حدود" (1967)، "طائر الليل الداعر" (1970)، "الرواية الشخصية لكتاب El boom" (1972)، "ثلاث روايات بورجوازية قصيرة" (1973)، "بيت في الريف" (1978)، "الأسرار الخفية للماركيزة دى لوريا" (1980)، "الحديقة المجاورة" (1981)، "لحن رباعى من أجل دلفينا" (1982)، "الياس" (1986)، "حيث تذهب الأفيال لتموت" (1995).

توفي في مارس 1997.

لا أذكر، بشكل مؤكد، متى كانت المرة الأولى التى انتبهتُ فيها الى وجودها. ولكن، ما لم أكن مخطئاً، فمن المؤكد أنها كانت ليلة شتاء ممطرة، وفى ترام مارٍ بمنطقة شعبية.

كنتُ قد اعتدتُ، كلما أدركني الملل من شارعي الضيق، ومن الأحاديث المعادة فيه، أن أستقل تراماً لا يهم أن أكون عارفاً بخط سيره. بهذه الطريقة أفوز بجولة في المدينة. وفى تلك الليلة، أخذت معي كتاباً لأقرأ فيه، فيما لو راودتني الرغبة في القراءة؛ إلا أنني لم أفتحه. كانت السماء تهطل مطراً متقطعاً، وفى هذا الجو تحرك الترام ماضياً في سيره فيما كان خالياً تقريباً من الركاب. جاءت جلستي الى جوار إحدى النوافذ، فأخذت أمسح البخار الذى تكاثف ماءً مغطياً الزجاج، حتى أرى من خلال هذه الفرجة الشوارع.

لا أذكر بالضبط اللحظة التى جلست هى فيها الى جانبي، لكن عند تزايد سرعة الترام في المنحنى، غمرني ذلك الإحساس الذي كان يغمرني في أحوال مماثلة. وعلى الرغم من ذلك، فقد كان إحساساً غامضاً

بالشكل الذى رأيتها به في تلك اللحظة. وبصرف النظر عن ذلك الشكل، فأعتقد أننى عشته من قبل، أو ربما حلمت به على هذا النحو نفسه. ويبدا لى أن هذا المشهد كاستعادة كاملة لمشهد سابق، وأن هذه السيدة مألوفة بالنسبة لى.

كانت أمامى بياقتها الوردية العريضة التى تنطرح فوق القميص المنسدل على جسمها. ولم يكن الركاب يتعدون ثلاثة أو أربعة أشخاص تناثروا على مقاعدهم في الترام. ومر بنا الترام عابراً بقالة الحى المفتوحة على ناصيته، بلافتتها المكتوبة بالنيون المضاء، بينما كان جندى حراسة يتثاءب وهو واقف بجوار صندوق البريد الأحمر، ساكناً في العتمة التى حلّت خلال دقائق معدودة. وزاد انشغالى بالجالسة إلى جانبي عندما لمحت ركبتها تحت المعطف الواقى من المطر ذى اللون الأخضر، وهى تلتصق بركبتى.

عشت ذلك الإحساس. وبصرف النظر عن الارتباك الذى سببه لى، فقد كان لطيفاً. وهكذا لم أشغل تفكيرى بأسئلة لا طائل من ورائها، حول أين حدث، ولا كيف حدث من قبل؛ بل تخلصت من هذا الإحساس المربك بابتسامة المنتصر بينى وبين نفسى، ووضعت حداً له بأن عاودت الالتفات إليها مواصلاً التطلع لها، وتأمل تلك الركبة التى تتدثر بمعطف أخضر واق من المطر.

كانت سيدةً بحق. سيدةً حقيقيةً تحمل مظلة مبتلة بقطرات ماء المطر في يدها، بينما تغطى شعر رأسها بقبعة تتسم بالبساطة. واحدةٌ من السيدات اللاتى بلغن الخمسين، ويمكنك أن تلتقى بآلاف منهن في قلب

هذه المدينة. لا هي جميلة بشكل لافت للنظر، ولا هي تفتقر إلى الجمال؛ لا هي غنية ولا هي فقيرة؛ بل تشي ملامحها عموماً بآثار جمال شائع، بحاجبيها المقرونين فوق قوس أنفها، الذي كان أكثر ما يحظى بالجمال في ملامحها.

إنني أقدم هذا الوصف لها لأنه ظل- بسبب ما جرى من أحداث بعد ذلك، من الأمور غير العادية- هو ما أحتفظ به من ذكرى تلك السيدة. وقتها تعالت رنات جرس الترام، فيما كان يغادر المحطة. تلاشى المشهد المألوف، وعدتُ لتأمل الشارع من خلال الفرجة التي صنعتها بإزاحة قطرات الماء المتقاطرة من تكاثف البخار فوق زجاج النافذة. أضيئت المصابيح، وكان صبي يغادر أحد المحلات وهو يحمل في يده لفافة تحتوي جزرتين ورغيف خبز، بينما يمتد صف البيوت الواطئة على طوال الرصيف: مررنا بنافذة، فبوابة، فنافذة، فبوابة، فنافذتين؛ وفيما بينها مررنا بمحلات الأحذية ومحلات تركيب غاز الإضاءة وتصليحها، ثم البقالين ودكاكين باعة الخضروات المتواضعة، التي كانت مغلقة الأبواب.

كنتُ شارداً حتى أنني لم أنتبه للّحظة التي نزلت فيها شريكتي في المقعد من عربة الترام. كيف حدث أنني- منذ لمحتها، وخلال الفترة التي كنت أتطلع إليها بالفعل بعد ذلك- لم أعد للتفكير فيها؟

ولم أعد للتفكير فيها حتى حلت الليلة التالية.

كان بيتي في حي يختلف تماماً عن ذلك الحي الذي أخذتُ منه الترام في اليوم السابق، حيث الأشجار هناك مزروعة في أرضية الرصيف،

والبيوت محجوبة حتى منتصف ارتفاعاتها بالأسوار الحديدية وكثافة الأشجار والحشائش.

كان الوقت متأخراً إلى حد بعيد، وكنت مرهقاً بعد أن قضيتُ جانباً كبيراً من الليل أثرثر مع أصدقائي وأمامنا أكواب "البيرة" وفناجين القهوة، ثم انصرفت سيراً على الأقدام إلى بيتي، رافعاً حول رقبتي ياقة معطفي. وقبل أن أعبر الطريق لمحت سيدة. تصورتُ أن شكلها مألوفٌ لي، فتواريتُ تحت ظلمة أغصان الأشجار، وظللت أتابعها بنظري للحظات. كانت هي بالفعل السيدة التي جلست بجانبي في ترام الليلة الماضية. ولما مرت بي، في سيرها تحت أحد المصابيح، تأكدتُ على الفور من معطفها الأخضر الواقي من المطر. أعرف بالطبع أن هناك آلافاً من المعاطف الخضراء الواقية من المطر موجودة في هذه المدينة، إلا أنني لم أشك مطلقاً في أنه معطفها. تذكرتها بالرغم من أنني لم أرها سوى للحظات فقط، وهي اللحظات التي لم يترك فيها شيء منها أي تأثير في نفسي. عبرتُ إلى الرصيف المقابل. وفي تلك الليلة، نمتُ دون أن أشغل فكري بالمرأة التي ابتعدت مختفيةً تحت أشجار الشارع الخالي.

بعد ذلك بيومين، وفي صباح مشرق، لمحت السيدة في الشارع الرئيسي. كانت الساعة الثانية، حيث بلغت حركة الشارع ذروتها، وتسمرت النسوة أمام فاترينات عرض الملابس، وهن يساومن حول ما يمكن شراؤه من الفساتين والأقمشة؛ بينما يغادر الرجال أماكن عملهم، وهم يحتضنون الأوراق الخاصة بهم تحت آباطهم. تأكدتُ مرةً أخرى أنها هي، عندما رأيتها وهي تسير، تلوح وتختفي في قلب كل هذا الزحام

من الناس، بالرغم من أنها لم تكن ترتدى ما كانت ترتديه في المرات السابقة. وقد غمرتني فرحة غير عادية، لأن شخصيتها بقيت محفورةً في ذهني، دون أن تمحى في فوضى بقية سكان المدينة.

بدأت، منذ ذلك الحين وفيما تلى ذلك، أرى السيدة مرات كثيرة وبلا انقطاع. كنت أصادفها في أى مكان وفى أية ساعة، لكن أحياناً ما كان يمر أسبوعٌ أو أكثر دون أن ألمحها.

ساورتني فكرةٌ ميلودرامية في أنني ربما تسببت في قلقها بملاحقتي لها، غير أني تخلصت من هذه الفكرة عندما تأكدت من أنها، عكس ما حدث معى، لم تتحقق من معرفتي وسط الزحام. أما أنا، فعلى العكس منها، فقد سحرني الإحساس بشخصيتها من بين كل الوجوه التي أعرفها. وقد تكرر ذلك، مثلما حدث مرةً كنت فيها جالساً في أحد المتنزهات بينما كانت تعبره، وهى تحمل كيساً ممتلئاً بالخضروات. ومرةً أخرى، وقفتُ لأشترى سجائر من أحد المحال، فإذا بها واقفةً تدفع للبائع ثمن ما اشترته. وفى إحدى المرات، ذهبت إلى السينما فإذا بالسيدة موجودة بها، جالسة بعدى بكرسيين. صحيحٌ أن عينيها لم تقعا عليَّ، إلا أنني اضطررتُ لمنع نفسى من مواصلة الالتفات إليها، إذ كانت شفتاها أكثر امتلاءً، وجمالاً، بالرغم من أنها كانت تضع حول إصبعها خاتماً غليظاً يكشف عن ذوق عادى جداً.

شيئاً فشيئاً، بدأت أبحث عنها، ولم يعد يومى يكتمل بغير رؤيتها. وأقرأ كتاباً مثلاً، فيثير دهشتي أنني- بدلاً من التركيز فيما هو مكتوب أمامي- أضرب أخماساً في أسداس في أمور تتعلق بالسيدة. أتخيل وجودها

في أماكن أفترضها. وفى قلب دوامة أحوالها التى أجهلها، أشرع في تجميع أية أمارة تدل عليها، حتى الأمارات قليلة الأهمية، والتى قد لا تدل على شىء، مثل حبها للون الأخضر، أو لتدخينها لنوع معين فقط من السجائر الشعبية، وتجوالها في السوق، وشرائها لما تحتاجه لبيتها من الطعام.

لمرات عديدة، كنت أحس كما لو أننى في أمس الحاجة لرؤيتها، لدرجة أننى كثيراً ما كنت أترك أشغالى- التى كان لزاماً علىّ أن أقوم بها- لكى أخرج للبحث عنها. في بعض الأحيان كنت أصادفها، وفى أحيان اخرى لم أكن أعثر عليها، فأعود بمزاج منحرف لأقفل على نفسى باب غرفتى، دون أن أملك القدرة على التفكير في أى شىء آخر طوال الليل.

عصر أحد الأيام، خرجت لأتجول. وقبل عودتى للبيت، وكان الظلام قد بدأ ينتشر، جلست على كرسى مستطيل في أحد المتنزهات. في مدينة كهذه فقط توجد تلك المتنزهات. تجدها صغيرة، وتتجدد سنوياً، وتفاجئك بأنها ضرورية في هذا الحى. وعلى الرغم من أنها لا تتميز بفخامة ما، فإنها لا تنحدر لدرجة البؤس.

الأشجار في المتنزه كانت ذابلةً كأنها ترفض أن تنمو، أو مصابةٌ بما يعوق نموها، لأنها مغروسة في أرض قاحلة، وفى مساحة محرومة من الضوء ومنخفضة. وعلى الناصية محل مفتوح لبيع زجاجات المياه الغازية، حيث تبدو أشكال ثلاثة شبان يتبادلون الحديث في دائرة الضوء. وفى قاع حوض السباحة الجاف، حتى ليبدو كأنه لن يكتمل إنشاؤه أبداً، تكومت مرميةً فيه قوالبُ الطوب المكسّره، وقشور الفاكهة، والأوراق.

بل إن أسياخ الكراسى وقضبان مساندها كانت تتخذ انحناءاتها فتبدو ملتويةً، كأن منظر المتنزه الشنيع لا ينقصه إلا استدرار الشفقة أكثر فأكثر.

فى أحد ممرات المتنزه، شاهدتها وهى تتقدم ناحيتى. كانت هى. تطلعتُ إليها وهى تتعلق بذراع امرأة أخرى، بينما كانتا تتبادلان الحديث بأصوات حادة ومتوترة، فيما تواصلان سيرهما في تثاقل. وفيما كانتا تمران من أمامى، سمعت ما قالته السيدة بصوت مثقل برنة الفجيعة:

- مستحيل!

سحبت المرأة الأخرى ذراعها وأحاطت به كتف السيدة وأخذت تواسيها. كانتا تدوران حول حوض السباحة الجاف، ودون أن يكملا الدورة، غادرتا المتنزه عبر ممر آخر.

وقفتُ يجتاحنى القلق، وقررت أن أمشى أسرع لعلّنى أعثر عليهما، ولعلنى أعرف من السيدة ماذا جرى، إلا أنهما لم تظهرا أمامى في الطرقات التى كانت مكتظة بأعداد كبيرة من السائرين الساعين لقضاء حوائجهم، أو للانتهاء من مشاغلهم آخر النهار.

لم أحظ بالطمأنينة طوال الأسبوع التالى للقاء الصدفة ذاك، وكنت أتمشى في طرقات المدينة لعلّى أعثر على السيدة مارةً في طريقى، لكنى لم أرها. بدا الأمر لى كأنها لم يعد لها وجود. أهملت كل ما كنت منشغلاً به، لأننى في الحقيقة لم أعد أمتلك أدنى قدرة على التركيز. كنتُ بحاجة لرؤيتها حتى وهى تعبر الطريق، ولا شىء أكثر من ذلك، كى أتأكد ما إذا كان الألم الذى بدا على وجهها- عصر ذاك اليوم في المتنزه- لا يزال موجوداً،

أم لا. ذهبتُ إلى الأماكن التى اعتدت أن أراها فيها، مرات متتالية، ولكن دون جدوى. وفكرت ذات مرة أن أوقف بعض الأشخاص في الطريق، وأرجوهم أن يسألوا آباءهم أو أمهاتهم أو أصدقاءهم عن السيدة، إلا أننى لم أكن أعرف عن أية سيدةٍ أسأل. وتركتهم يواصلون سيرهم. وهكذا مرّ ذلك الأسبوع دون أن أراها.

فى الأسابيع التالية، قل ذهابى إلى تلك الأماكن، وانتهى الأمر بى إلى أن أخذت أتعلل بأننى أصبت بمرض ما، حتى أظل راقداً في الفراش. وبهذه الطريقة، أتمكن من نسيان السيدة التى تحتل بطيفها عقلى كله. ومن يدرى، فربما بعد أن تنقضى عدة أيام دون خروجى، ثم أخرج فيحدث أن أقابلها في أول يوم، في الوقت الذى أكون فيه قد فقدت الأمل. إلا أن مقاومتى لم تطُل. وخرجتُ بعد يومين لم يفارق فيهما طيف السيدة أنحاء غرفتى في أية لحظة. وعندما نهضت من الفراش، أحسست بجسدى منهكاً، وبحالتى الصحية سيئة للغاية. ومع ذلك، ركبت الترام وأنا على هذا الحال. دخلت السينما، وخرجت منها لأتجول في السوق، وأكثر من ذلك، مضيتُ لحضور عرض للسيرك الذى أقيم خارج سور المدينة؛ ورغم ذلك لم أعثر على أى أثر للسيدة في أى مكان من تلك الأمكنة.

إلا أننى، وبعد مدة، تصادف أن عثرت عليها مرةً أخرى. كنت منحنياً لأحكم رباط إحدى فردتى حذائى، فإذا بى أراها مارةً أمامى فوق الرصيف المشمس، وعلى شفتيها ابتسامة كبيرة، وبيدها غصن من نبات له رائحة زكية. كانت تسرع ضمن أوائل الذاهبين باتجاه الكنيسة،

وهم يتوافدون مسرعين للحاق بالصلاة التى فاتتهم بدايتها. رغبتُ في الركض وراءها، على أمل اللحاق بها، إلا أنها ضاعت مني وسط زحام السائرين في الشوارع.

غامت صورتها في ذهني بعدما فقدت أثرها في تلك الفرصة التى أتيحت لى وضاعت، فرحت بعدها إلى أصدقائي ومعارفي. سرت في الشوارع وحدى أحياناً، وبصحبتهم أحياناً أخرى، آملاً في نسيانها. لكن لم يحدث أن نسيتُها، بل على العكس من ذلك، بدا حضورها أكثر إذا ما قيس بحضور بقية أهل المدينة.

ذات يوم استيقظتُ في الصباح، ولدىَّ يقينٌ يومها بأن السيدة تموت الآن. كان ذلك يوم أحد. أنهيت إفطارى، وخرجت أتمشى تحت ظل أشجار الحى الذى أقيم فيه، ورأيت في إحدى الشرفات سيدة عجوزاً تأخذ حماماً شمسياً. كانت مسترخية في جلستها، بينما تغطى أعلى ركبتيها بشال كثيف الوبر. بعدها، رأيت في أحد المتنزهات صبية تدهن كراسى الحديقة بطلاء أحمر، إذ كانوا يجهزونها استعداداً لاستقبال الصيف، في الوقت الذى كانت أعداد قليلة من الناس هى التى تتناثر بحديقة المتنزه. كل ما كان بالحديقة، والأصوات التى تتردد بها، كل ذلك بدا واضحاً في الهواء النقى. ولكن في مكان ما بالمدينة نفسها، التى أتمشى متجولاً فيها، كانت السيدة تحتضر.

استدرتُ عائداً للبيت، ومكثتُ في غرفتى منتظراً.

رأيت من نافذتى أسلاك الكهرباء المعلقة والممتدة بين أعمدة الإضاءة منحنية، فيما كانت ظلمة الليل تتكاثف آتيةً من بعيد لتحط فوق أسقف البيوت، بعدما خيمت فوق التلال البعيدة. أخذ ضوء النهار يتلاشى أكثر فأكثر، بينما استمرت أسلاك الكهرباء تهتز وتسكن. وفى الحديقة، راح شخصٌ ما يروى حشائشها بالخرطوم، بينما كانت الطيور تتسابق مسرعةً بالعودة مع المساء الذى يحل، فتغطى بجلبة صيحاتها وحركة تزاحمها قمم الأشجار كلها، التى كنت أتطلع إليها من نافذتى. وفى الحديقة، كان طفل يضحك، وكلب يتواصل نباحه.

توقفت على الفور بعد ذلك جلبةُ الأصوات كلها في اللحظة نفسها، ثم انفتحت بئرٌ عميقة من السكون في دعة المساء، وكفت أسلاك الكهرباء عن الاهتزاز الآن. وفى الحى غير المعروف لى، لابد أن تكون السيدة الآن قد ماتت. وفى بيت بذاته، وارب بابه هذه الليلة، وأضاء الشموع في الغرفة المزدحمة بالأصوات الخافتة وكلمات المعزين، هذه الليلة تسقط هاويةً إلى نهاية لا يمكن تخيلها، وتخمد مشلولةً كل أفكارى حول السيدة. كان لابد أن أخلد فوراً إلى النوم، حتى لا تفترسنى ذكرياتى عن تلك الليلة بأكثر مما حدث.

فى الجريدة اليومية لصباح اليوم التالى، قرأتُ أن أقرباء دونيا إستردى أرانثيبيا ينعونها، ويحددون للجنازة الساعة كذا، وللدفن الساعة كذا. أيمكن أن تكون هي؟... نعم، إنها هى بلا شك.

ذهبتُ قاصداً المقبرة، وتابعت موكب الجنازة الذى كان يتحرك ببطء طوال الطريق، وسط أشخاص يخيم عليهم الصمت، لأنهم يعرفون

ملامح وجه المرأة وصوتها، ومَن يتألمون من أجلها. بعدها، واصلتُ السير لمسافة تحت ظل الأشجار، وحَر ظهيرة ذلك اليوم اللافح يغمرنى بنوع خاص من السكينة.

والآن تُلح السيدة على تفكيرى معظم الوقت. تُلح بلا توقف. وثمة فكرة تُلح علىّ كثيراً؛ فعلى ناصية أحد الشوارع هاجمنى مشهد حضورها، وأدركت أنه ليس أكثر من مشهد تتوالد منه مشاهد أخرى، تتمثل لى فيما يشبه مطاردة لا تنتهي حتى أذهب لرؤية السيدة وهى تتنزه بحاجبيها المقرونين، ومعطفها الأخضر الواقى من المطر. لكنى أستسلم لابتسامة تغالبنى، إذ إننى، أنا بنفسى، رأيت تابوتها وهو يودع باطن الأرض في مدفنها، وتحت جدار قصير ثُبتت عليه لوحة للذكرى، وقد كتبت فوقها كلمات رثاء للميتة؛ وتحت شاهد قبر مثل هذا فالموتى يتساوون.

إيسا دى كيروز (البرتغال)

الكنـــز

إيسا دى كيروز (1845ـ 1900):

كاتـب برتغـالى يُعتبر الروائـى الأكـبر في البلاد. ولـد عـام 1845 في بوفـوارى بايـسم. درس الحقـوق والتحـق بالـسلك الدبلوماسى في عام 1872. وبعد أن خدم في كوبا وانجلترا، تم تعيينه في وظيفة قنصل بباريس، وواصل عمله فيها حتى نهاية حياته.

تميزت الكتابات الأولى له ـ والتى شملت مقالات وقصصًا قـصيرة ـ بـالحس الـساخر والفانتازيـا المفعمـة بـأجواء المـوتى والقبور.

وفى فترة متأخرة من حياته، كان من المؤسسين لجماعة من المثقفين المنشغلين بالتوجهات الفنية والاجتماعية، والدفاع عن الـرؤى الواقعيـة والطبيعيـة في الأدب. وخـلال سـنوات عملـه

كقنصل، كتب إيسا دى كيروز رواياته التى اكتسبت شهرة واسعة، والتى كشف فيها عن الشرور في الحياة البرتغالية المعاصرة: "جريمة الأب أمارو" (1875)، التى تعالج الآثار المدمرة لحياة العزوبية لكاهن ضعيف، ومخاطر التعصب في إحدى المدن الإقليمية بالبرتغال؛ ورواية "ابن العم باسليو" (1878)، وفيها هجاء للحب الرومانتيكى. وتكشف رواية "الأشرار" (1888) عن انحطاط الطبقة العليا في المجتمع البرتغالى، فيما تشي رواية "المدينة وسلسلة الجبال" (1901، نشرت بعد وفاته)، بحنينه إلى جميلات الريف البرتغالى.

ومن قصصه القصيرة الرائعة: "الكنز"، و"المرحوم"، "خوسيه ماتياس"، "فتاة شقراء غريبة الأطوار"، "الكارثة"، "تمدن".

ولم يكن اسم "إيسا دى كيروز" هو الضمان الوحيد لأعماله، بل الموهبة الفذة التى جعلت منه الكاتب الأكبر للبرتغال في كل الأزمنة، مبدع تحققت له السيادة، بوصفه خالقًا شيطانيًا ماهرًا.

- 1 -

هـم ثلاثـة إخـوة مـن عائلـة ميـديرانيوس، روى، جـوانيس، وروستابال. في ذلك الوقت، كانوا الوحيدين في مملكة استورياس؛ المنحدرين من أصل كريم والأكثر جوعاً. وما يسترون به أبدانهم لا يتعدى الثياب المرقعة.

وفى دار عائلة ميديرانيوس الشبيهة بهم، اقتلعت الأعاصير الجبلية زجاج الشبابيك وخشب السقوف. وفى ذلك الشتاء، تمر بهم الليالى الباردة وهم منكمشون في ركن من أركان الدار، وقد تغطوا بجلود الجمال، وخلعوا نعالهم التى فُصلت من جلد البقر المدبوغ، ووضعوها على أحجار الموقد أمام المدخنة التى غطاها الهباب منذ زمن طويل مر عليها دون أن توقد بالموقد نار، أو تغلى فوقه الطنجرة الحديدية. وعندما يحل الظلام، يقضمون بشراهة لقيمات من خبز أسمر مدعوكة بالثوم. بعدها، يجوسون في الظلمة والثلج على بصيص من شعلة لا تنير، حتى يجتازوا فناء الدار، ذاهبين للنوم في الاسطبل، ملتمسين الدفء مما تبعثه

حرارة أجساد الأحصنة الثلاثة، بجلودها التي تنتشر فيها البثور والتقرحات، والتي تعاني الجوع مثلهم وأكثر، حتى أخذت تقضم عروق خشب المربط. لقد حولهم الضنك ـ الذي لازمهم طوال حياتهم، في هذه الحالة البدائية ـ إلى وضع أقرب إلى حياة الذئاب.

وذات يوم من أيام الربيع، وكان يوم أحد يسوده السكون، وبينما كان الثلاثة يجتازون جبل روكيلانيس بحثاً عن حيوان يصطادونه، أو فطر عش الغراب من بين جذوع أشجار السنديان؛ بينما كانت الأحصنة الثلاثة ترعى الحشائش اليانعة لأبريل، عثر الإخوة ميديرانوس ـ خلف أشجار الصنوبر الكثيفة ـ على خزانة حديدية قديمة مخبأة في مدخل كهف صخرى، كما لو كانت مصانة في برج حصن آمن. وكانت المفاتيح الثلاثة للخزانة الحديدية القديمة في أقفالها الثلاثة. وعلى غطائها كتابة كان من الصعب فك طلاسمها، بسبب الصدأ المُسودّ الذى خلقته الفطريات. وأمكن رؤية سطرين من الشعر مكتوبين بحروف عربية وكانت الخزانة مملوءة حتى حوافها بمسكوكات ذهبية لعملة قديمة!

وبسبب المفاجأة المذهلة والفرحة الشديدة التي اجتاحت الثلاثة، استحال لونهم أشد قتامة من سواد الشموع الكبيرة التي تحترق في الكنيسة. ودسوا أيديهم على الفور ـ وهم في حالة هياج ـ في الخزانة، حتى غرقت في العملات الذهبية، وهم منفجرون في الضحك بشكل بدا كأنهم جعلوا أوراق الدردار الرقيقة ترتجف. وعندها تراجعوا بعيون ينطلق منها الشرر، واجهوا بعضهم البعض بغلظة وانعدام ثقة، بل بسوء نية بلغت حداً جعل جوانيس وروستابل يتحسسان مقابض

خناجرهم التي يحملانها حول خصرهما. عندئذ انتفض روى، الأكثر سمنة بخدوده الحمراء، والأكثر ذكاءً، رافعاً ذراعيه كحكَم بينهما، وصرخ فيهما قائلاً إن هذا الكنز- سواء كان آتياً من عند الرب أو من عند الشيطان- فهو ملك للثلاثة، وسوف يتم تقسيمه بينهم بالعدل، بعد أن يزنوه.

ولكن، كيف يمكن حمله حتى دار عائلة ميديرانيوس في قمم الجبال، وهذا الصندوق ممتلئ بهذا الشكل؟ اتفقوا أيضاً فيما بينهم على أن يغادروا الجبل بهذه اللقية، قبل أن يهبط الظلام. ولذلك طلب من أخيه جوانيس- أخفهم حركة- أن يذهب إلى القرية المجاورة لـ"ريتورتيليو"، ومعه بعض العملات الذهبية في جيوبه، لشراء خُرج من الجلد لكل واحد من الثلاثة، وثلاثة مكاييل من الشعير، وثلاث فطائر محشوة باللحم، وثلاث زجاجات نبيذ. اللحم والنبيذ لهم، لأنهم لم يذوقوا الطعام منذ الليلة الفائتة، والشعير للأحصنة. وهكذا يتناولون وجبة دسمة، ويركبون الركائب كالسادة، محتفظين بالذهب في الأخراج الثلاثة، صاعدين إلى دار آل ميديرانيوس تحت جنح الظلام، في ليلة ليس فيها قمر.

- تفكير سليم!

هكذا صاح روستابل، الرجل الأطول فيهم مثل شجرة الصنوبر، بشعره الطويل، ولحيته التي تتدلى من عند عينيه المحمرتين حتى إبزيم الحزام حول وسطه.

لكن جوانيس لم يصبر على الخزينة الممتلئة بالذهب. كان عابساً وسيء الظن، فيما كانت أصابعه تشد جلد رقبته المسود. وفى النهاية قال بطريقة لا مراعاة لهما فيها:

- يا إخواني! الخزينة لها ثلاثة مفاتيح، وأنا أريد أن أقفل قفلى، وأحمل مفتاحه معى!

- يا نور الله!، أنا أيضاً أريد أن أحمل مفتاحى معى.

زام بالتالى روستابل.

ابتسم روى: أكيد، أكيد، وكل واحد منا، نحن أصحاب الذهب، يكون مسئولاً عن المحافظة على المفتاح الذى معه.

وانحنى الثلاثة فوق الخزينة وهم صامتون، وكل واحد منهم أقفل بإحكام القفل الذى يخصه.

وبعدما تم ذلك، اطمأن جوانيس بالفعل، وركب حصانه، وتوجه متوغلاً في طريق شجر الدردار قاصداً ريتورتيليو، بينما استهل غناء مواله الحزين:

"أوليه... أوليه..
خرج الصليب من الكنيسة
وقد كساه سواد الحداد".

ـ 2ـ

فى الخلاء، أمام الجبل الذى كان الكنز مخبأ فيه، سَنَّ الثلاثة سكاكينهم وسيل مياه جارف يتدفق مندفعاً من بين الصخور، متساقطاً فوق صخرة هائلة مجوفة، مكوناً ما يشبه خزاناً من مياه صافية، يهدأ بها السيل ليأخذ بعد ذلك مجراه باتجاه الدغل. وعلى جانب منه، وفى ظل شجرة زان، يرقد عمود قديم من الجرانيت، مغطًى في سقوطه بالطحالب. مضى روى وروستابل ليجلسا فوقه بسيوفهما الهائلة الحجم بين ركبتيهما، والحصانان يأكلان في تلك الأثناء العشب الطرى مختلطاً بنبات الخشخاش، ببراعمه الذهبية، وطائر شحرور يواصل غناءه بين الأغصان، ورائحة لطيفة للبنفسج تجعل الجو المشرق باعثاً على السُّكر.

وبينما كان روستابل يتطلع الى الشمس تثاءب، وشعر بالجوع. أما روى- الذى كان قد خلع غطاء رأسه، ومسح على ريشاته البنفسجية العتيقة- فقد بدأ الكلام بطريقته الذكية الهادئة في الحديث، عن أن جوانيس لم يكن راغباً هذا الصباح في النزول معهم الى جبل تملؤه الصخور. ولكن يا له من حظ سيء! إذ لو أن جوانيس كان قد بقى في ميديرانيوس، فإنهما وحدهما مَن كانا سيكتشفان هذه الخزينة، وكانا سيقتسمان الذهب فيما بينهما هما الاثنين فقط، وسيكون أكثر بكثير، بدلاً مما سيبقى لهما بعدما يأخذ جوانيس نصيبه، وسرعان ما سيُضيعه في الحانات، على لعبه مع أوغاد آخرين بزهر اللعب.

ـ آه يا روستابل! لو أن جوانيس هو الذى كان قد مرّ من هنا، وكان هو الذى عثر على هذا الذهب، فبالتأكيد لم يكن ليقتسمه معنا. آه يا روستابل!

غمغم الثانى مهدداً وبالغ الحنق، بينما كان يشد شعرةً من لحيته السوداء:

ـ لا طبعاً، جوانيس شديد الحرص. فعندما كسب في السنة الماضية مائة دوكادوس* من صانع السيوف في فرسنو، لم يرغب حتى في أن يقرضني ثلاثة دوكادوس لأشترى بذلةً جديدة لى.

ـ ألم تر؟ـ صاح روى بوجه متهلل، وتحدث كلاهما من فوق العمود الجرانيتى، كما لو كانا يحملان الفكرة نفسها التى كانا يخفيانها. وتحت ثقل خطواتهما الواسعة، كانت الحشائش الطويلة ترتعش.

ـ ولأجل ماذا؟ـ واصل روى حديثه. فيم سيستخدم كل الذهب الذى سيأخذه منا؟ ربما لم تسمع سعاله في الليل؟ وحول القش حيث كان ينام، كانت الأرض كلها سوداء، من الدم الذى نزفه. إنه لن يعيش حتى سقوط الثلج القادم يا روستابل! لكنه ـ في هذه الفترة ـ سيكون قد بدد بالفعل العملات الذهبية القديمة القيّمة، والتى كان ينبغى أن تكون من حقنا نحن، لكى نبنى بها دارنا، ونقتنى أحصنة، وأسلحة، وبذلات

---

* عملة كان يتم التعامل بها في أسبانيا حتى نهاية القرن السادس عشر، وكانت قيمتها حوالى سبع بيزيتات.

فاخرة، وأراضى، كما يليق بمن هم مثلنا، كبار السن من أهالى ميديرانيوس...

- إذاً يجب أن يموت، وأن يموت اليوم!- كان هذا ما صرح به روستابل.

- هل تريد حقاً أن ينتهى الأمر هكذا؟

أسرع روى بالإمساك بذراع أخيه، مشيراً له إلى الطريق المحاط بالنخيل، والذى سيترل فيه جوانيس من فوق حصانه.

- وبعد ذلك، لن تكون القسمة على ثلاثة، لأنه لن يكون هناك ثلاثة.

وثمة مكانٌ أفضل يقع بين الأشجار الكثيفة. ويجب أن تكون أنت الذى يقوم بذلك يا روستابل؛ لأنك الأقوى، والأكثر مهارة. ضربةً واحدةً بقوة في الظَّهر، وستكون النهاية. وقد حكم الرب أن تكون أنت. وهذا بالفعل، ولأكثر من مرة يذهب جوانيس إلى الحانات، وبلا أى حياء أطلق عليك أنك خترير وأبله، لأنك لا تعرف كيف تفك الخط، ولا أن تقرأ الأرقام.

- فاجر!

- هيا بنا!

مضيا إلى هناك. وبعدما أخذا يبحثان وراء بعض الأماكن الكثيفة الأشجار، والتى يوجد بها طريق مختصر ضيق مكسو بالحصى مثل قاع

نهر، اختبأ روستابل في حفره عميقة. وما جرى بالفعل أنه أخرج سيفه من غمده وانتظر. وهزت نسمة رقيقة جريد النخيل في السفح، وأحسا بالأصوات الخفيفة لقرع الأجراس السريعة لريتورتيليو.

روى، وهو يداعب لحيته، أخذ يحسب الوقت ويحدد الساعة، من وضع الشمس التى بدأت تختفى الآن خلف الجبال. ومرّ سربٌ من الغربان فوقهما وهو ينعق. وعاد روستابل- الذى كان يتابع طيرانه- للتثاؤب، شاعراً بالجوع وهو يفكر في الفطائر المحشوة باللحم، والنبيذ الذى يحمله الأخ الثانى في الخُرجين.

- أخيراً! انتبه! فأنت تسمع الآن في الطريق، الموال القديم المبحوح والعليل الذى يتردد صداه بين غصون الأشجار:

- أوليه! أوليه!
الصليب خرج من الكنيسة
والكل يرتدى ثياب الحداد السوداء.

غمغم روى:

- في جنبه! بمجرد أن يمر!

خبب الحصان كان يصطك بحصى الطريق، وريشة غطاء الرأس بدأت تظهر فوق منطقة الأشجار الكثيفة.

اندفع روستابل خارجاً بسرعة من بين فروع شجيرات العليق، وبمهارة غاب نصل سيفه بأكمله في جنب جوانيس. وفى اللحظة التى كان

فيها هذا مأخوذاً على غرة في العراك، استدار فجأة فوق الركوبة بضربة صماء ووقع جانباً على الصخور. وفيما كان روى يمسك بلجام الحصان، كان روستابل يلقى بنفسه فوق جوانيس الذى كان يعانى سكرات الموت. وراح يطعنه من جديد بالسيف الذى قبض عليه من النصل، كما لو كان خنجراً، وطعنه في الصدر والعنق. وصرخ روى:

- المفتاح!

وبعد أخذ المفتاح الذى كان يحمله الميت في صدره، فر الاثنان جرياً على الطريق؛ روستابل يتقدم في الأمام بريشة غطاء رأسه المكسورة والمنحنية، والسيف لا يزال عارياً ومضموماً تحت الذراع. جبان تجتاح جسده كله رجفةٌ بطعم الدم الذى كان لا يزال يلطخ فمه.

أما روى، فقد سار خلفه، جاذباً بيأس لجام الحصان الذي غاصت قوائمه في الأرض المليئة بالحصى، وهى تشهر أسنانها الكبيرة الصفراء؛ لا تريد أن تفارق صاحبها متصلباً، متروكاً، مطروحاً بطوله على الطريق.

كان لزاماً على روى أن ينخس الردفين الهزيلين بطرف السيف، ويجرى عليها بالنصل المرهف، كما لو كان يطارد أحد المسلمين. خرج الى الخلاء، حيث الشمس لم تكن قد ذهّبت أوراق الأشجار.

روستابل، الذى كان قد قذف بغطاء الرأس والسيف في دغل الأشجار الكثيفة، كان منحنياً فوق حافة الصخرة المجوفة مثل خزان، بأكمام مشمرة يغسل بصخب وجهه ولحيته. أما الحصان الذي هدأ

الآن، فقد عاد يرعى وعليه الخُرجان الجديدان اللذان كان جوانيس قد اشتراهما من ريتوتيليو. ومن الخُرج الأكبر ـ الذي كان مكتظاً ـ برزت فوهتا زجاجتين. عندها أخرج روى ببطء من حزامه سكينه الطويلة، وبلا صوت جاس وسط الحشائش الكثيفة، واقترب بحرص وتكتم من روستابل، الذي استنشق بصوت مسموع بينما لحيته تقطر ماءً. وبرباطة جأش، وكأنه يدق وتداً في الأرض، غرس النصل الحاد بأكمله في الجذع المنكفئ، بطعنة واثقة في القلب.

سقط روستابل فوق خزان المياه بلا آهة، وبالوجه الغاطس في المياه، وخصل شعره طافية. أما محفظته الجلدية القديمة، فكانت مربوطة بين فخذيه. ولكي يُخرج من داخلها المفتاح الثالث للصندوق، كان على روى أن يحمل الجسد، وعندئذ اندفع دمٌ منبثقٌ فائراً، وجرى على حواف الخزان ليغرقه بالدم.

ـ 3 ـ

والآن صارت المفاتيح الثلاثة للخزينة كلها له وحده... لروى الذي فتح ذراعيه على اتساعهما وهو يتنهد بارتياح. متى سيحل الليل والذهب كله معه، مخبأ في الأخراج، وهو يسوق طابور الأحصنة بدروب الجبل صاعداً الى ميديرانيوس، ليدفن كنزه في البدروم، فيما سيكونان هما هناك في مجرى السيل، أو أيضاً جنب شجيرات العليق،

حيث سيبقيان وحدهما تحت ثلوج ديسمبر، حفرتين بلا اسم، بعض عظام بلا اسم، وسيكون هو في هذا الوقت السيد، سيد ميديرانيوس الكبير، وفى الكنيسة الجديدة بدار عزّه وغناه سيأمر بتقديم القرابين من أجل روحى أخويه الميتين... ميتين كيف ماتا؟ كيف ينبغى أن يموت آل ميديرانيوس وهم يقاومون الأتراك!

فتح الأقفال الثلاثة، وأخذ حفنة من العملات الذهبية وسمع صوت صلصلتها حين اصطكت بالحجارة. أى ذهب في نقائه مثل هذا، وقد صار ذهبه! بعد ذلك، راح يقيس ويختبر سعة الأخراج. وعندما عثر على زجاجتى النبيذ ودجاجة مشوية سمينة، هاجمه الإحساس بجوع وحشى؛ إذ إنه- منذ اليوم السابق- لم يأكل سوى نسيرة من سمك مجفف، وكم من الوقت مر عليه دون أن يأكل الدجاج!

أية لذة كان يشعر بها، وهو جالس بين الحشائش فاتحاً ساقيه، وبينهما يمسك بالطائر المشوى، وأية رائحة فواحة ومعها اللون العنبرى للنبيذ!

آه يا جوانيس! كان المفترض أن تكون رئيساً لسفرجية، فهو لم ينس حتى الزيتون.. لكن لماذا أحضر هو لثلاثة سيأكلون، زجاجتى نبيذ فقط؟ انتزع جناح الدجاجة والتهمه في شراهة بأسنان هائلة.

حل المساء رائقاً وعذباً بغيوم لونها وردى. وعلى البعد ينعق سربٌ من الغربان. أما الأحصنة فكانت شبعانة، تنعس وهى واقفة ورؤوسها مدلاة إلى أسفل، والنبع يصدر خريره ويغسل الميت.

نظر روى لى شعاع الضوء النافذ من زجاج زجاجة النبيذ، بهذا اللون المعتق، والحامى، والتى لا يمكن أن يقل سعرها عن ثلاثة "مُرابطى". رفع فوهة الزجاجة لى فمه، وأخذ يرتشف الرشفات ببطء، حتى أنها جعلت رقبته بشعرها الكثيف تتموج.

أوه! يا له من نبيذ مقدس حلت فيه البركة، لدرجة أنه سرعان ما جعل الدم يسخن. رج الزجاجة التى فرغت، ونزع سدادة الزجاجة الثانية. ولكن بما أنه داهية لم يشرب. والآن عليه أن يذهب لى الجبل كى يحضر الكنز؛ فذلك يتطلب القوة والتصرف السليم. ومرتكزا على كوعيه ومسترخياً، فكر في واحد من آل ميديرانيوس، ودار جديدة مسقوفة بالقرميد، بجوار ألسنة اللهب العالية في المدفأة خلال الليالى التى يتساقط فيها الثلج، وهو في فراشه من الديباج المزركش حيث تتواجد عنده دائماً النساء.

وفجأة، مدفوعاً بوطأة إحساس بضيق النفس، أسرع ليحمل الخُرجين. لحظتها صار الظل أشد كثافة بين أجساد الأحصنة. جر حصانًا لى جانب الخزينة. رفع الغطاء وأخذ قبضة من الذهب، لكنه ترنح، فأفلتت العملات الذهبية التى تساقطت ليعلو صوت صليلها فوق الحصى على الأرض. رفع يديه المرتعشتين لى صدره. ماذا جرى يا دون روى؟ يا للّعنة! كانت بصدره نيرانٌ، نيرانٌ مشتعلة لدرجة أنها أضاءت بداخله وصعدت لى الحلقوم. مزق الصديرى، وخطا بضع خطوات مترنحة، وهو يلهث ولسانه خارج فمه؛ مسح قطرات ثقيلة من عرق مرعب متجمد كما لو صار ثلجاً.

أوه.. يا عذراءُ يا مقدسة! ومرةً أخرى، اندلعت النار أشد استعاراً، أي حريق، أي عذاب، أي تقطيع لنياط القلب! صرخ:

ـ النجدة.. ليأتِ أي أحد! يا جوانيس!.. يا روستابل!..

وتقلصت ذراعاه وهما تضربان الهواء في يأس، واستعار النار يتزايد بداخله، ويحس بعظامه تتفتت وتتهاوى كأعمدة خشبية لبيت يلتهمه حريق.

مشى يترنح نحو خزان ماء النبع حتى يطفئ تلك النار، ارتطم بجثة روستابل، وبركبته استند على الميت، وخربش الصخرة باحثاً ـ من خلال عويله وزحيره ـ عن شؤبوب الماء ليجعله يتساقط فوق عينيه وشعره. لكن المياه الآن تحرقه كأنها استحالت معدناً مصهوراً. تراجع عندها الى الوراء، وارتمى فوق الحشائش التى أخذ يقتلعها بخبطات من قبضتيه ويعض فيها، يقضمها عاضاً أصابعه ليمتص برودتها. واستطاع النهوض فيما كان لعابه يسيل بغزارة ويفور على لحيته. وفجأة فتح عينيه على اتساعهما بشكل مخيف، وهو يصرخ بفزع كأنه ادرك أخيراً أنه قد غُدر به:

ـ إنه السُّم!

آه يا دون روى، يا زكى... إنه سُم! لأن جوانيس مثلما أسرع للوصول الى ريتوريتليو، وقبل شراء الأخراج، كان عليه أن يسرع الى حارة خلف الكاتدرائية ليشترى السُّم من عطار يهودى عجوز، السُّم

الذى سيمزجه بالنبيذ. لقد هداه تفكيره إلى أن يكون وحده من يمتلك الكنز، ويكون الكنز له وحده.

حل الليل. وخرج غرابان من سرب الغربان التى تنعق، وحطا في الحال على جثة جوانيس، الذى كان لا يزال مطروحًا بين أشجار الدغل. ويواصل النبع خريره غاسلاً الميت الثانى. نصف مدفون في الحشائش المسودة، ووجهه كله قد غطاه السواد.

نجمة صغيرة كانت تلتمع في السماء. أما الكنز، فقد بقى هناك، ولا يزال حتى الآن في جبل الكيلانس.

هيَّا بنا لنقتُل القطَط الصَّغيرة

ألبارو ثيبيدا ساموديو

(30 مارس 1926ـ 12 أكتوبر 1972)

ولد في بارأنكيا (كولومبيا). روائي، وكاتب قصة قصيرة، وعمل بالصحافة مديراً لجريدة الكاريبي اليومية، وأخرج للسينما بعضاً من الأفلام القصيرة.

كان من ألمع جماعة بارانكيا الأدبية، التي كانت تضم جابرييل جارثيا ماركيث، وبرناردو دي استريبو، وألفونسو فوينمايور، وخيرمان بارجاس، وكويكي اسكوبيل، والرسام أليخاندرو أوبريجون.

وقد أصدر رواية واحدة ومجموعتين قصصيتين: رواية "البيت الكبير" (1962)، ومجموعة القصص الأولى: "نحن في الانتظار"، ومجموعة القصص الثانية: "قصص خوانا".

قال جابريل جارثيا ماركيث عن "البيت الكبير": "هذه الرواية التى تقدم معالجة شعرية لواقعة تاريخية، وهى المجزرة التى ارتكبها النظام الحاكم بالتصفية الجسدية بالرصاص الحى لإضراب عمال مزارع الموز المملوكة لمستثمرين من الولايات المتحدة، وبعد قتل آلاف المضربين تم نقلهم ليلاً بالقطارات، وفى الصباح كان كل أثر للمذبحة قد أزيل، ولم يوجد شاهد واحد على الجريمة؛ هذه المعالجة بشاعريتها، وحوارها المتقن، والبناء القائم على التقطيع والتداعى الأقرب لمى غموض الذكريات، جعل "البيت الكبير" لا مجرد رواية جميلة، بل إقدامًا جسورًا على التجريب والتحديث، مما جعل هذه الرواية مساهمة جديدة في أهم حركة أدبية في العالم المعاصر: رواية أمريكا اللاتينية".

وقال عن قصص "نحن في الانتظار": "إنها مجموعة القصص الأفضل حتى ذلك الوقت في كولومبيا". وهى المجموعة التى ترجمنا منها هذه القصة.

وكان بزوغ ألبارو ثيبيدا ساموديوم، وسطوعه الباهر، وعمره القصير الذى لم يتجاوز 46 عاماً، مثل النجم الذى هوى في 1972.

قالت دوريس: "هيا بنا لنقتل القطط الصغيرة، هيا بنا لنقتلهم أنا أعرف كيف أفعل ذلك... هيا بنا لنقتلهم".

"لا، ولا أزال أقول لا".

"لكنك قلت إننا سنقتلهم ما إن يولدوا- هذا ما قالته مارتا- أنت قلت إن علينا أن نقتلهم حتى لا نُضطر إلى أن نهديهم".

سألت دوريس: "كم عددهم؟".

"لا أعرف، لكن يبدو أن الموجودين خمسة".

سألت دوريس: "أين هم؟".

"فى آخر غرفة، وهم وضعوهم في الصندوق، في المكان الذى تنام فيه تيدى".

سألت دوريس: "أهُم جميلون؟".

"أنا لا أعرف، فأنا لم أرهم حتى الآن، لكني عرفت أنهم وُلدوا، لأنهم في الصباح كانوا في المطبخ يتكلمون عنهم".

قالت مارتا: "تعالوا نلقي نظرةً عليهم".

"لا، الآن لا، بعد ذلك، تعالوا نطلع إلى السطح".

"هيا بنا- قالت دوريس- ونلعب طرزان، أتحبون؟".

"طيب. سأذهب لأبحث عن قِطع اللعب".

قالت مارتا: "أنا لن ألعب".

"ولماذا لا تريدين أن تلعبي؟".

قالت مارتا: "لا يمكنني. لا يمكنني أن أطلع إلى السطح".

"ولماذا لا يمكنك أن تطلعي؟".

قالت مارتا: "أنتِ عارفة".

قالت دوريس: "هي خائفة. تعالى أنا وأنت".

قالت مارتا: "أنا لست خائفة. لكن هذا يحزنني".

"هيا بنا يا دوريس، وهي ستنتظرنا هنا".

قالت دوريس: "خوافة".

قالت مارتا: "أنا لست خوافة، لكن هذا يحزنني".

وسألت دوريس: "ولماذا يحزنك؟".

"اتركيها الآن يا دوريس".

قالت مارتا: "أنا بدون سروال تحتانى".

قالت دوريس: "الآن سأذهب وسأقول لأمي عن ذلك، فبالأمس أيضاً جئتِ بدون (كلسون) أنا رأيتك".

وقالت مارتا: "أنت عارفة أنك بدون سروال تحتانى. أنت قلت لى، والآن تريدين أن تلعبي طرزان".

وقالت دوريس: "عندما نرجع للبيت سأقول لأمي أنك قلت لمارتا إنك لا تلبسين سروالاً تحتانيًا".

"هيا بنا لنقتل القطط".

قالت دوريس: "هيا بنا".

وقالت مارتا: "نعم تقولين إننا لن نقتلهم".

"هل هو ما ستقوله دوريس؟".

"لا" ـ قالت دوريس ـ "هيا بنا لنقتل القطط".

"ادخلن".

وسألت دوريس: "لماذا تقفلن الشبابيك؟".

"لكى لا تخرج. هاتي لى هذا اللوح يا مارتا".

"علينا ان نخرجها من الصندوق، لأنها ستصاب بالسعار على الفور وتعضنا"ـ هذا ما قالته دوريس.

"لا، إنها لا تعض. امسكن الغطاء بينما أخرجهم".

وسألت دوريس: "الموجودون كم؟".

"أربعة لا أكثر".

قالت مارتا: "افتحى الشباك، فأنا لا أراهم جيداً. جميلون هم؟".

"نعم. إنهم بالغو الجمال، يوجد اثنان سوداوان، واثنان رماديان".

قالت دوريس: "أحب أن آخذ واحدًا أسود لى".

"لا. لابد أن نقتلهم كلهم. لن تأخذى اى واحد. انا قلت إنهم سيقتلون كلهم. انظري هكذا. اضغطى بشدة على الرقبة هكذا، أترين؟ اضغطى جيداً بقوة عليها لمدة دقيقة، هذا سهل، أترين؟ ها هو ميت الآن. اقتلى هذا الآخر".

قالت دوريس: "عليك أن تقتلى هذا يا مارتا، والأحسن أننى قتلت الرمادى".

وقالت مارتا: "لا. لن افعل. أنا لا أريد قتل أى منهم".

"لا تخافى، لن يعضك. انت لا ترين أنهم حتى ليس عندهم أسنان".

قالت مارتا: "لا. لا أريد ان أقتل أيّا منهم".

"اتركى هذا الآن يا دوريس. هو مات بالفعل. اقتلى الآخر".

وصرخت مارتا: "لا تقتلوهم، لا تقتلوهم".

"اهدئى، اهدئى، اهدئى، أمسكى بالغطاء يا دوريس".

سألت دوريس: "ما الذى ستفعلينه؟".

"سأضعهم مرةً أخرى في الصندوق".

"لماذا لا ندفنهم في الفناء ونقيم لهم جنازة- قالت ذلك دوريس- وواصلت: اتحبين أن أحضر ثلاثة صناديق كرتون صغيرة؟ أنا عندى في البيت كومة صناديق صغيرة".

"لا. لن نضعهم في الصندوق مرةً أخرى. هناك واحد ناقص. أما تزالين حتى الآن لم تفكرى في أن تقتليه يا دوريس؟".

قالت دوريس: "أنا لا أحب أن أقتل الأسوَد".

"اعطه لى هنا. أسرعى يا دوريس، أعطه لى".

قالت مارتا: "أعطه لها".

"أخرجن. اقفلى الباب يا مارتا".

قالت دوريس: "هيا بنا نطلع إلى السطح".

"لا. الدنيا حر جداً".

قالت دوريس: "لكني أريد بعضاً من حبات الكريز. أنا جائعة".

"فى الثلاجة دجاج. أحضريه".

قالت مارتا: "ولماذا تبكين؟".

"أنا لا أبكى".

قالت مارتا: "نعم. أنت تبكين".

"لا تضايقانى".

قالت مارتا: "أنت لا تريدين أن تقتلى القطط الصغيرة".

"نعم لا أريد".

قالت مارتا: "لا تخافى. دوريس لن تقول لأمي".

"أنا لست خائفة".

قالت مارتا: "إذاً فلماذا تستمرين في البكاء؟".

"بلا سبب، بلا سبب، بلا سبب".

ماتيلده إسبيخو

أمبارو دابيلا

كاتبة مكسيكية، ولدت في قرية بينوس التابعة لمدينة ثاكاتيكاس 1928، وحائزة على جائزة "خابيربيّارُتيا" عن مجموعتها القصصية "أشجار متحجرة"، عام 1977.

وهي واحدة من أهم كاتبات المكسيك، بل أمريكا اللاتينية، في القرن العشرين. ويتحدثون عنها بوصفها "المايسترا". ساهمت بإبداعاتها- في مجال القصة القصيرة- في دفع موجة التجديد، وترسيخ هذا النوع الأدبي في القارة، وبتوهج متفرد قدمت مجموعتها: "حين تقطعت الأوصال" (صدرت أول ترجمة عربية لها في سلسلة الجوائز بالهيئة العامة للكتاب عام 2008، ترجمة: محمد إبراهيم مبروك).

والأسلوب القصصي المتفرد لأمبارو دابيلا يتميز بالانسياب بسلاسة ودقة، متسعاً لمساحة كبيرة هي مجالٌ لمستويات ودرجات من الانفعالات الإنسانية. وشخصياتها تواجه برباطة جأش: الخوف، والوحدة، والموت، والجنون، كمحصلة وجود مبهم ومثير للقلق. وهي تستكشف الدوافع التي تقلب التفكير والانفعالات رأساً على عقب. وهكذا، فبمثل ما تبني شخصيات مركبة، فهي تساهم بذلك في أن يكون الناتج الأدبي من أكثر النماذج غموضاً وغنًى في القص المكسيكي.

وصدر لها مجلد جمع أعمالها القصصية:

☆ حين تقطعت الأوصال (1959).

☆ موسيقى مُجسَّدة (1964).

☆ أشجار مُتحجِّرة (1977).

☆ بأعين مفتوحة (ضمن المجلد: 2008).

ما لا يمكن تصديقه، هو كيف مر الزمن؛ إذ كنا وقتها في 1940، ونحن الآن في 1962، اثنتان وعشرون سنة! بالكاد يمكننى تصديق ذلك. كنت شابة، وبصحة جيدة، بشعر أسود وبشرة ناعمة. وعندما أتذكرها، برأس بيضاء تماماً ومليئة بالتجاعيد والأمراض، اثنتان وعشرون سنة، ولا تزال حكاية "دونيا ماتيلده" تثير ألمى، لأننى أعرفها جيداً، ولا أستطيع مطلقاً أن أنتزعها من رأسى، ولأنها الإنسانة الأكثر طيبة في الدنيا، وغير قادرة على أن تسبب أذى لأى أحد، ولا حتى لذبابة. عرفت دونيا ماتيلده قبل سنة 40. وهذه الصورة التى التقطها لنا بانتشو في تشابوتيبيك كانت في تلك السنة. لكن كان هناك بالفعل زمن كافٍ لنكون أصدقاء، مثلما حدث في 1935، حين انتقلنا للحياة في شارع تشوبو. وهكذا تعرفت على دونيا ماتيلده، التى كانت مالكة لذلك المنزل. كانت هى أيضاً تقيم في شارع تشوبو نفسه، في نمرة 127 على بعد بلوكين، من المنزل الذى استأجرناه. أذكر، كما لو أن ذلك حدث بالأمس، أول مرة رأيتها فيها. طرقتُ الباب، وخرجت لتفتح لى سيدة

أو آنسة بلغت من العمر ما أنضجها، وكل ما ترتديه أسود. سألتها عن دونيا ماتيلده إسبيخو، مثلما قالوا لى إن ذلك هو اسمها.

- أنا ماتيلده إسبيخو، ما الذى يمكننى أن أقدمه لك؟ هذا ما قالته بصوت راق لى كثيراً، ينم عن حسن تربيتها.

- أنا مهتمة بتأجير المنزل الذى تعرضينه- سيادتك- للإيجار، بهذا أجبتها، وأنا أنظر وأدقق النظر في شعرها الأبيض الجميل، ممشطاً بذوق عالٍ وبعناية فائقة، والذى شد اهتمامى. بعدها أمعنت النظر في عينيها اللتين كان لونهما نادراً جداً، بين الأخضر والأزرق، فتبدوان مثل زبرجدتين. ثم اكتشفتُ أنهما- كما قدرت- مثل عينا فيليدور، قِطّنا، ولذلك فقد أعجبت بهما للغاية.

دعتنى للدخول حتى يمكننا أن نتكلم بكل راحةٍ وهدوء، وقادتنى إلى الصالون. أحسست أننى أدخل في زمن آخر، أو في حلم، عند دخولى إلى ذلك الصالون الساحر بقطع أثاثه المذهبة طراز لويس الخامس عشر، وبيانو بمؤخرة مربعة، وستائر من القطيفة بلون اليشم الأخضر، وسجاجيد ناعمة، ومفروشات من قماش الجوبيلون في كل ناحية، وآنية من القيشانى، وزهور من البورسلين، لمبات جاز، زجاجات خمر من البلور المشطوف، ميداليات عليها رسوم ملائكة، ومرايا كبيرة من التى يرى الإنسان قوامه فيها بأكمله. جلستُ بحرص بالغ وحذر، وأنا خائفة من أن ينخلع هذا المقعد الفخم تحت ثقلى. كنت في قمة التأثر من كثرة الأشياء الجميلة، ومن الاهتمام البالغ ولطف السيدة التى لم أكد أكلمها عن مدى إعجابنا بالمنزل ورغبتنا في تأجيره.

ـ حقيقةً أعجبكما؟ـ سألت مسرورةـ لو رأيتِ سيادتك مدى تعلقى بهذا البيت الصغير، فهناك عاشت أختى الحبيبة صوفيا.

وهى تقول هذا امتلأت عيناها بالدموع. وأخرجت لحظتها منديلاً من الكتان ومطرزـ من عند براسيلاسـ وجففت دموعها بحرص شديد.

لم أعرف ماذا أفعل، ولا ماذا أقول لها. وشعرت بالحزن، وأنا أفكر بأننى بالتأكيد قد جددتُ ذكرى حزينة، وخمنت أن أختها قد ماتت.

ـ اغفري لي سيادتكـ قلت لها في النهايةـ "لم أكن أقصد..."

ـ لم تتسببي في إيلامى يا عزيزتى، فألمى مازال حياً، ولا أستطيع حتى الآن أن أنام عندما أضطر إلى الكلام عن أمور معينة، لكنه انقضى على أية حال، فلو أن البيت أعجب سيادتك، فسأؤجره لك على الفور.

ـ شكراً جزيلاًـ قلت لها مسرورةـ وبعد ذلك شرحت لها أننى في حاجة لأن أعرف كم هو مبلغ الإيجار والتأمين الذى تطلبه، لنرى إن كان كلاهما في حدود إمكانياتنا. وفكرتـ بخيبة أملـ أن الاحتمال الأكبر هو أن ذلك الإيجار ليس في إمكاننا.

ـ الضمانات التى أطلبها هى فقطـ وعلى سبيل المجاملةـ تسديد الإيجار، لا أكثرـ قالت هى ذلكـ والإيجار هو الذى يمكن لسيادتكم أن تدفعوه، ما يعنى، أن عليكم أنتم أن تحددوه.

لابد أنها كانت تقدر المفاجأة والذهول اللذين أثارتهما كلماتها، لذلك قالت:

- قد تفكرين سيادتك بالتأكيد أنني طيبة القلب جداً، لكن الأمر ليس كذلك؛ بل الأمر يعود لى سيادتك، ولأنك أحببتِ البيت. وسوف أشرح لك الأمر كله. لقد رغبتُ في أن أؤجره لى الشخص الذى يحبه حقيقةً، ويعرف قيمته، لأننى أريد من الساكن أن يحافظ عليه كما هو، دون أن يتعامل معه بشكل سيء. أنت لا تعرفين سيادتك كيف كانت تعتنى به أختى المسكينة.

وهى تودعنا مدت لى يدها، يدٌ صغيرة بالغة الرقة والنعومة، كما لو كانت لطفلة. وبالكاد لمستها، لأننى خفتُ أن تؤلمها خشونة يدى الأقرب ليد فلاحة.

انتقلنا على الفور لى بيت تشوبو. وراق لنا أن نرى كيف ظهرت هنا لامعةً قطع الأثاث التى، والحق يقال، لم تكن أثاثاً بالغ الفخامة، وتكفى للاستخدام بالفعل. وفاقها كلها، طاقم الصالون الذى اشتريناه عند زواجنا، والذى كانت ضمنه السجادة بلونها الباهت، وقد انتشرت بها آثار خربشات فيليدوروتيتينا.

ظللت مبهورة بدونيا ماتيلده التى لم نتحدث إلا عنها، في كل الأوقات، مع بانتشو والأطفال: لقد كانت بالغة الرقة والأناقة، وبدا بيتها كأنه قصر. ولم أكف عن الكلام عنها.

وبالكيفية التى قضينا فيها ثمانية أيام في البيت الجديد، شعرت بأنه من اللازم أن أكلم السيدة عنه. بعد الغداء، ذهبت لرؤيتها. وبينما كنت على بعد عدة خطوات من بيتها، رأيتها خارجةً منه وهى تحمل غصنًا كبيراً

من زهور القرنفل الأبيض، فأردت أن أرجع، وأنا أفكر بأنه ليس من اللائق أن أقطع الطريق عليها. لكنها رأتني حين اقتربت منها وحييتُها. وأعطتني الانطباع بأنها سُرت لرؤيتي، لأنها ابتسمت بطريقة محببة، وهي ترد على تحيتي. وسألتني بدورها عن الحال فيما يخص كل شيء في بيتي.

ـ لقد مررتُ فقط لأحيطك علماً بأننا مقيمون فيه الآن، بعد أن نقلنا إليه مفروشاتنا. وفي الوقت نفسه، نحن تحت أمرك.

ـ كم أنت حبُوبة يا عزيزتي. ولا أعرف كيف أشكرك على لطفك، ويعز عليَّ للأسف ألا أدعوكِ للدخول، لكن كما ترين سيادتك ،ـ قالت وهي تشير إلى زهور القرنفل ـ فأنا الآن خارجةٌ لأحمل هذه الزهور إلى أعزائي الموتى. فقولي لي سيادتك، لو أمكنك غداً أن تأخذي فنجان شاي معي.

ـ نعم طبعاً، وأشكرك جداً ـ وأكدتُ على الاستجابة لها بحماس للفكرة. وبالفعل، فهي قليلةٌ أو معدومةٌ الفرص لديَّ لحضور دعوات شخصيات لها مكانة دونيا ماتيلده. والسيدات اللاتي جربتُ التعامل معهن كن زوجات أو خطيبات موسيقيين من زملاء بانتشو، لا أكثر.

في اليوم التالي، وبعد الغداء، ارتديتُ فستاني، وجعلته أفضل ما يكون بقدر الإمكان، حتى الكورسيه لبسته؛ إذ اعتقدتُ دائماً أنه على المرأة أن تليق بالمكان والأشخاص، والسيدات اللاتي تزورهن. وسيدة مثل دونيا ماتيلده، التي كانت سيدة عظيمة، لابد لي أن أبدي لها ما

أمكن احتراماً بالغاً. كان بانتشو يعزف مصنفاً للفيولين، عندما سمعنى أخرج، واندهش من أن يرانى بمثل هذه الزينة كلها:

- إلى أين أنت ذاهبة، معتنية بزينتك إلى هذا الحد؟- سأل، وهو يتطلع إلىَّ من فوق نظارته.

- أنا ذاهبة لتناول الشاى مع دونيا ماتيلده إسبيخو- أجبته، وأنا أشعر بالأهمية البالغة والرضا.

قادتنى دونيا ماتيلده حتى الصالون وهى تمسك بذراعى، بمثل ذلك الاهتمام والحرص كأننى قد أصبحت إحدى سيدات طبقتها نفسها، بل وصديقة شديدة القرب لها. ذلك كان الشىء الذى لا يمكن أن أنساه أبداً.

دعتنى للجلوس إلى جوارها على الكنبة، حتى أكون مستريحة في جلستى أكثر، وأخذت تقدم الشاى وهي تسألنى عن بانتشو وعن الأولاد. وأبداً لم أتناول في حياتى شاياً أكثر لذة منه. وهذا ما قلته لدونيا ماتيلده.

- يسرنى كثيراً أنه أعجبك يا عزيزتى. فهو الشاى ذو النكهة الشهية الذى يروق لى. شاى صينى من زهور صغيرة برية، ومن الصعب الحصول عليه، ويثمن غالٍ، لكنه سيادتك ما أحبه. فقد اعتدتُ عادةً سيئة، وهى أنه يستحيل علىَّ أن أحرم نفسى من الحاجات الجميلة. أؤكد لسيادتك أننى قادرة على أى شىء، إلا أن أتنازل عن بعض عيوبى الصغيرة.

هذا ما قالته لى بظرف شديد، وأسعدنى بشكل خاص ما يبهر الإنسان. ومن علبة صفيح حمراء قدمت لى سيجارة:

ـ وهذه عادة سيئة أخرى. قالت وهى تبتسم. نوعٌ من أصناف الدخان الأكثر شهرة الموجودة في العالم، والأخف، والألطف، والذى لا يؤذى الحلق. جربيها سيادتك، فأنا متأكدة أنها ستعجبك.

قبلت سيجارة منها، وأنا ألاحظ كيف وضعت سيجارتها بطريقة بالغة الأناقة، في مبسم طويل من العاج. وبعد تناول الشاى تناولنا كونياك، فيما كانت تطلعنى على ألبوم للعائلة مليء بصور لفرسان، وسيدات أنيقات للغاية ورفيعات الشأن، وراحت تشرح لى من كانوا. ذلك أنهم كلهم الآن موتى. عرفتنى على أختها التى عاشت في بيتنا. وعلى والدتها وأبيها، وأخويها الاثنين. وعندئذٍ انتبهت إلى تجاوزنا للساعة السادسة مساءً، فقلتُ لنفسى إن عليَّ أن أنصرف مع أننى لا رغبة لى في الانصراف، لأنه ليس مما يليق أبداً أن أطيل البقاء في الزيارة الأولى. ذلك ما كان لابد أن أفعله، وهو ما قالته أمى لى ذات مرة، وأنا لا أحب أن أفعل شيئاً يجعلنى أبدو في صورة غير طيبة أمام السيدة.

ـ يؤلمنى كثيراً أنك ستنصرفين يا عزيزتى، فأنا أحيا وحدة شديدة، حتى أن مثل هذه الدقائق لا يمكن حسابها في الحقيقة. لكن أعطيني وعداً سيادتك بأنك ستعودين في يوم آخر لتتناولى الشاى معى.

أكدتُ لها أنه كان شرفاً لى أن أستمتع بصحبتها، وأننى سأعود دائماً لو أنها سمحت لى، لزيارتها.

كما وصلتني خلال أسبوع رسالة قصيرة بالغة الرقة، على ورق لونه وردى، دعتنى فيها من جديد لزيارتها. حدث ذلك حين قال لى بانتشو أنه يبدو من العبث أننى أحاول كسب صداقة دونيا ماتيلده، لأننا ننتمى لى عالمين مختلفين، وأننى لن أستطيع أبداً أن اكافئها بمثل أوجه الكرم التى تحيطنى بها. وهذا ما أحزننى كثيراً. لكننى فيما بعد قلت لنفسى لو أن السيدة دعتنى، فإننى لن أتغاضى عن دعوتها، وسأذهب لأتناول الشاى معها، ولن أطيع، لأول مرة، ما قاله بانتشو. إننى أحترمه دائماً، وآخذ في الحسبان بشدة كل آرائه، لأنه أكثر ثقافة منى.

وهكذا صارت تلك الصداقة التى استمرت لسنوات. وعبرها وصلنا لى أن أحببنا بعضنا لى هذه الدرجة. وبالرغم من أن دونيا ماتيلده كانت سيدة أرستقراطية، ومن وسط اجتماعى مختلف تماماً عن وسطنا، فإنها لم تُبد لنا أبداً- ولو لمرة واحدة- صدوداً؛ وإنما كانت تبدى لنا البراهين بلا نهاية على مودتها. في البداية، كنا نرى بعضنا مرةً في الأسبوع، تدعونى فيها لتناول الشاى. وبعد ذلك بفترة، بدأت تطلبنى من وقت لآخر، لأصحبها لى المقابر، لتُودع الزهور عند موتاها؛ فقد اعتادت أن تذهب في كل أيام الآحاد بشوق وورع، لا نراه لدى آخرين. وفى إحدى المرات، والتى قلت لها فيها كم يعجبنى إخلاصها، أجابتنى: إن الزهور لم تنقطع عنهم أبداً، وإنه أقل ما أستطيع أن أفعله لهم، يا صديقى، كواجب علىّ لأحبائى، دائماً أحمل لهم قرنفلاً أبيض. وكما يقال، فالقرنفل الأحمر هو للأحياء، والأبيض للموتى. وفى المدافن، كان لها جانب يخصها، حيث دفن كل أقربائها، ولا تحمل لهم فقط الزهور كل

أسبوع، بل تدفع أجرًا لصبي ليكنس الفناء ويزيل التراب منه. وعندما كنت أصحبها، وهي ترتب وضع الزهور في الأصص الحجرية، كانت- حين تنتهي من ذلك- تجلس وتبقى ساكنةً ومستغرقةً في التأمل وقتاً طويلاً. من المؤكد أنها كانت تصلّي. وأنا أيضاً كنت أصلّي، دون أن أعرف من أجل مَن، لمجرد مشاركتها لا أكثر. وفى العودة من المقابر، كانت تدعوني إلى وجبة العصر الخفيفة، وهو ما كنت أنتظره منها بحماس، إذ كانت دائماً ما تقدم لى شيئاً يعبر عن ذوقها الرفيع. وفى إحدى تلك الأمسيات، بعد تناول وجبة العصر الخفيفة، أخرجت مرةً أخرى ألبوم الصور الذى لديها، وأرتنى صورة لفارس أشقر يبدو من هيئته رفيع الشأن. "هذا هو فلبرتو، زوجى الأول. أى حب بالغ الرقة كان حبنا يا عزيزتى! عندما مات بقيت مكتئبةً تماماً". وهكذا عرفت أن دونيا ماتيلده قد تزوجت بالتأكيد لمرتين، حيث قالت: "زوجى الأول". وأذكر أننى علقت على دون فلبرتو بأنه كان بالغ الوسامة.

- كان حَسَن المظهر للغاية- قالت هى- وحتى في موته، كان يبدو أميراً ألبسوه بدلته الفراك، وبدا كأنه كان نائماً فحسب. وأوقدنا له الشموع هنا في هذا الصالون.

لم أستطع التوقف عن النظر إلى صورة دون فلبرتو، وحاولت أن أتخيل كيف تكون الحياة مع رجل بالغ الوسامة، وكيف أنه في الصورة يبدو بالغ القوة ومفعمًا بالحياة. فكرتُ بأنه ربما تعرض لحادثة، وطرحتُ هذا السؤال على دونيا ماتيلده.

ـ لا يا عزيزتى ـ أجابتنى هى ـ راح يتلاشى شيئاً فشيئاً، مثل شمعة تذوب بشكل بطيء.

بانتشو وأنا دائماً ما كنا نتساءل، لماذا تحيا سيدةٌ بمثل هذا الوضع الاجتماعى الطيب، ومثل هذا البيت المتميز، ولا يقوم على خدمتها عمالٌ للزراعة. فليس لديها سوى سيدة تدخل وتخرج لإعداد الطعام وترتيب البيت وملبسها. أما الحديقة، فهى تعتنى بها بنفسها. ولم أفهم أبداً كيف تستطيع أن تقوم بذلك بهاتين اليدين بالغتى الرقة. وعندما كنت أكثر صراحة بسؤالها عن ذلك قالت لى:

"أنا، يا عزيزتى، أحب وحدتى، بالغة الامتلاء بالذكريات، وأتضايق بحضور العديد من الناس". وفكرنا أن ذلك يرجع لامتلاكها أشياء قيمة، وربما لا ثقة لديها في الخدم. لم يغب عن بالنا أيضاً ما بدا لنا، إذ من الغريب أنها بلا أصدقاء من شخصيات طبقتها نفسها، أو على الأقل أنها لم تختلط أبداً بهم، وتعيش في عزلة شديدة. ولكن، وكما قالت لى بنفسها، فهي تحب أن تبقى وحيدة مع ذكرياتها كلها.

فى أول الأمر، كنتُ الوحيدة من أسرتى التى أقمت صداقة معها. ومع الزمن، بدأ بانتشو أيضاً يُعجب بها مثلى. ولمرات عديدة، كان يمر على بيتها في الأمسيات ليعود بى معه الى بيتنا. وعندئذ كانت تدعوه للدخول. كنا نتحدث لبعض الوقت ونحن نتذوق البراندى أو شراباً مفتخراً آخر من تلك التى تقدمها لنا. دونيا ماتيلده تعشق الموسيقى الراقية. ووفق تقديرى للحديث الذى يدور بينها وبين بانتشو، فهي تعرف الكثير عنها. ففى شبابها، كانت تعزف البيانو؛ فقد اعترفت لنا

بذلك ذات ليلة. لكن سنوات كثيرة مضت لم تعزف فيها. ولذلك فلابد أن عزفها الآن سيكون نشازاً تماماً وأصم. وعرض عليها بانتشو أن يساعدها في الوصول إلى الأداء الصحيح، إلا أنها رفضت بطريقة مفعمة بالمودة قائلة إنها لا يمكنها أن تعود الآن للعزف، بعد زمن طويل، تخللته مصائب كثيرة. ومع ذلك، ففي إحدى الليالي طلبت بنفسها من بانتشو أن يراجع معها تدريبات عزف على البيانو، عندما يمكنه ذلك. وفي مرتين أو ثلاث، قادها زوجي كمبتدئة، واستطاع أن يحصل منها على أصوات تثير الإعجاب. وفي يوم ما، حمل بانتشو فيولينه، وبقليل من المحاولات في عزف مشترك من الاثنين، شرعا في العزف معاً. وحسبما أتذكر عن هذه الفترة، فالأعمال التي كانا يعزفانها بالغة الجمال والحساسية، سيرينادا لتوسيلي من أجل إليسا، والنجمة لبونثي. وفي المرة الأولى التي عزفا فيها السيرينادا، تنهدت دونيا ماتيلده مع انتهاء العزف، وبدت الدموع في عينيها.

ـ كم كان هذا اللحن محبباً إلى قلب حبيبي رينالدو!ـ قالت لنا ذلك وهي متأثرة. وسألها بانتشو: أهو أخوك؟ فأجابته: لا يا صديقي، رينالدو كان زوجي الثاني ـ أجابت، وأرتنا صورة مصغرة لفارس بالغ التميز، بشوارب كثة فاحمة وعينين بنظرة نافذة. وسألتها:

ـ هل مات هو أيضاً؟

ـ نعم يا عزيزتي، أزواجي الثلاثة ماتوا. والأخير، أوكتابيانو، مضى على موته حوالي خمس سنوات. ومنذ ذلك الحين، أعيش وحيدة على

الذكريات والحنين. قالت ذلك بصوت بالغ الخفوت، حتى إن بانتشو وأنا لم نجد وسيلة لتعزيتها وانتزاعها من التفكير في حظوظها السيئة.

وفي بعض أيام الآحاد، أو أيام العطلات، كنا نذهب نحن الثلاثة إلى غابة تشابولتبيك للتنزه في طريق الشعراء المرصوف أو طريق الفلاسفة، واللذين كانا المفضلين لنا. كنا نجلس على دكة في ظل الأشجار العالية، وهي تحكي لنا عن الأماكن الرائعة التي عرفتها، عندما كانت تذهب إليها هي وأبواها وإخوتها في العالم القديم. كم كان حديثها جميلاً! والساعات تمضي ونحن نصغي إليها. وتراءى للمرء منا أنه ذهب إلى تلك المدن الجميلة، أو تنزه بجندول في فينيسيا، في المدينة التي قالت إنهم عاشوا فيها لمدة عام. وحدثتنا أيضاً عن الكونشيرتات الرائعة التي استمعوا إليها في أرقى مسارح العالم، والأوبرات المحاطة بالأبهة. كانت أشياء كثيرة تفوق الوصف رأتها وعرفتها دونيا ماتيلده. وذلك كله كانت تحكيه لنا بلا غرور، لا كما يفعل الآخرون الذين أعرفهم، والذين يحاولون فقط إبهار المرء، ودفعه إلى الإحساس بأنه جاهل وعديم الثقافة.

حين حل اليوبيل الفضي لزواجنا، كانت دونيا ماتيلده الإشبينة لنا. أي يوم كان! ففي الصباح، كان القداس بكنيسة مكتظة بالزهور التي أرسلتها، وبموسيقى لا أذكر أنني سمعتها من قبل، ولا حتى يوم أن تزوجنا؛ لأننا يومها لم نستطع أن نوفر سوى الأورج. وتناولنا الإفطار في بيتها مع الأولاد، وقدمت لنا الأطباق كما تُقدم للملوك. كانت في غاية السعادة. قالت إن حفلات العرس تهز مشاعرها جداً، ولا تتوقف عن إثارة ذكريات أعراسها. وبعدما انتهينا من إفطارنا، قادتنا إلى الصالون

لتقدم لنا هديتها. أبقتنا لا نعرف ما هي، ولا ندري ما نقوله، وهي تسلمنا عقد التمليك باسمنا، للبيت الذى أجرته لنا. كانت مفاجأة مذهلة، وأحب ما جرى لنا في حياتنا. ولم يكن ممكناً تصديقه. كان ذلك كأننا في حلم. بانتشو وأنا أخذناها بالأحضان، ونحن لا نستطيع أن نمنع الدموع: "لا تبكيا يا صديقيّ، إنه احتفال وليس جنازة". هذا ما قالته: هيا بنا لنأخذ كأساً ونتحدث. وقدمت لنا شراباً جيداً ومؤثراً بقوة، وهو الذى كان يحبه كثيراً دون فلبرتو، زوجها الأول. ومع هذا الشراب الذى لم نعرف اسمه لأنه كان صعباً جداً، صرنا، بانتشو وأنا في انتشاءٍ بالغ، كأننا كنا في العشرينيات من عمرنا. أما هي، فإننا لم نعرف الأنبذة، بالتأكيد لأنها اعتادت عليها طوال حياتها. "زوجى المسكين فلبرتو كان يأتى على زجاجة كاملة يومياً. كان يتذوقه بمتعة حقيقية، وظل يشربه حتى آخر يوم في حياته". هذا ما قالته لنا، وابتسمت بعذوبة وهى تتذكر رفيقها الأول.

بعد فترة من احتفالنا السنوى، أنجب فيليدور وتيتينا لنا قططاً صغيرة، كان أحدها ذكراً، له نفس عيني فيليدور ودونيا ماتيلده، فقررنا أن نهديه لها لأن له لون عينيها. كان جمال القط الصغير يرجع إلى ذلك اللون الرمادى الذى يكسوه كله، وعينيه الصغيرتين كحجرين كريمين من الزبرجد الأزرق. أما دونيا ماتيلده، فما أشد ما أحبته حتى أنها قبلت إهداءه لها، مع أنها لم تقتن أبداً في حياتها أى حيوان في بيتها. أطلقت عليه اسم مينو. وأرادت أن تحتفى به: اشترت لحماً مفروماً خصيصاً له، وجهزت له سلة بالغة الجمال لينام بجوار سريرها. وكل يوم تمشط شعره

وتضع له "فيونكات" من شرائط حرير جميلة. بدأ مينو يكبر، ويزداد جماله بالحياة الرغدة التي أتاحتها له دونيا ماتيلده. لكن يوم 14 أكتوبر- الذى لن أنساه أبداً- أكل شيئاً لا أعرفه من الحديقة أصابه بالتسمم. أرسلت لنا دونيا ماتيلده تستدعينا بإلحاح. وجدناها مضطربة وعيونها محمرة. أما المسكين مينو فبالكاد كان يتنفس. كل المحاولات التى أجريت له، لم تأت بنتيجة. بحثنا عن طبيب بيطرى، تقاضى مائة بيسو مقابل الزيارة فقط. أعطاه حقنًا ومصلاً، لكن مينو لم يستعد حيويته، ومات فوق جونلة دونيا ماتيلده التى أخذت تنتحب بلا عزاء. وعندما هدأت قليلاً، أخذت تجهزه للدفن في سلته بالزهور والعطور. ووضعته في الصالة، فوق البيانو. سألناها ما الذى فكرت فيه بخصوص القط الصغير، فقالت لنا إنها ستدفنه في الحديقة لكى تحتفظ به، أكثر قرباً منها. وعرض عليها بانتشو أن يقوم هو بذلك، لكن دونيا ماتيلده لم توافق "ممتنة لكم جداً يا أصدقائى، إنها أمور أفضل أن أقوم بها بنفسى". قالت ذلك بصوت أكثر حزناً. وتركناها جالسة إلى جوار القط الصغير الميت، بألم هائل يكسر النفس. ومَن كان سيقول لنا إنها كانت المرة الأخيرة التى سنرى فيها دونيا ماتيلده في بيتها!

ففى اليوم التالى لموت مينو، بعد تناول الطعام، وكنت أقوم بغسل كؤوس الشراب الصغيرة، وبانتشو يعطى درساً في قراءة النوتة الموسيقية، وصل إلينا دون روبرتو الصيدلى عند الناصية، الذى كان صديقاً حميماً لبانتشو، ليقول لنا بتأثر بالغ أن عدة سيارات مكدسة برجال البوليس قد وصلت، وأخذوا دونيا ماتيلده معهم، وتركوا البيت

تحت المراقبة. بقينا مذهولين بشدة، ومفزوعين كما لو تراءى لنا ما جرى، دون أن نعرف ولا حتى أن نفكر. وعندما أفقنا قليلاً من الصدمة، ذهبنا لنرى ما حدث. أما دون روبرتو، فكان واقفاً بباب الصيدلية، ومنعنا من الذهاب.

ـ سيكون من الأفضل ألا تذهبوا إلى البيت. ويبدو أن فيما حدث أمورًا سيئة. ولأنكم سيادتكم كنتم أصدقاء جداً للسيدة، فلا تذهبوا، أيضاً حتى لا يمسكم شيء. هذا ما قاله دون روبرتو.

ـ وكأصدقاء لها، فنحن نعرف أنه لابد أن يكون هناك سوء فهم، وشيءٌ ما لابد أن يتضح. لا أدرى ما هو، أو لماذا يتوجب علينا عدم الحضور. هذا ما قاله بانزعاج شديد.

ـ ولذلك، فأنا، بالوضع الذى أنت فيه، يُستحسن ألا ترانى كثيراً. عاود الإلحاح على ذلك دون روبرتو.

ـ عنده حق دون روبرتو. قال بانتشو، الخوّاف دائماً، الذي يكره أن يُعرض نفسه للوقوع في تورطات. سيكون من الأفضل لنا أن نذهب إلى بيتنا، وننتظر لنرى ما الذى سنعرفه. وبعد كل هذا، ما الذى نستطيع أن نفعله نحن؟ قال ذلك موجهاً كلامه إلىّ، ناظراً لى بطريقة غير مريحة.

ذهبنا إلى بيتنا، وجلسنا لنسأل أنفسنا. مرةً بعد أخرى. ما الذى يمكن أن يكون قد حدث. وظللنا على هذا الحال حتى حل الليل تماماً. وفى اليوم التالى، كان هناك اضطراب وهرج شديد في شارع تشوبو. وبدا كمهرجان من كثرة الخلق التى تجيء وتروح، وتتزاحم متكومةً أمام بيت

دونيا ماتيلده. لم يدخلوه لأن رجال الشرطة لم يسمحوا لأحد بالدخول، لكنهم صعدوا متسلقين الشبابيك، وأى مكان تمكنوا من الوصول إليه. وحتى الآن لا أزال محتفظة بقصاصات الصحف. كان مرعباً ذلك الذى قالوه عن السيدة المسكينة! بطبيعة الحال، فذلك كله كان محض افتراءات وإساءة لسمعتها من خلق أشرار. أناس أعتقد أنهم جيران ممن لا يحبونها، وكثيراً ما كانوا يبحثون عن الطريقة التى يضايقونها بها، لأنها لم تحاول أبداً أن تقيم علاقة بينها وبينهم. أبلغوا البوليس عن أن السيدة تقوم بالدفن في حديقة بيتها. وعندئذٍ، أتت قوات الشرطة وقبضوا بدون تروٍ على دونيا ماتيلده، وشرعوا في حفر أرض الحديقة. وبالطبع، عثروا على الصندوق الصغير، وبه المسكين مينو! وهياكل عظمية هى التى بسببها أثاروا فضيحة مدوية، تستدعى أموراً مريعة أشد. وبالتأكيد، كما شرح لى بانتشو، فهذه الهياكل العظمية قد تكون لهنود حمر فقراء، من أولئك الذين راحوا ضحايا للأسبان باطراد، وتم دفنهم في نواح عديدة. ولكن السيدة الطيبة، التى لا تجد من يدافع عنها، كانت هدفاً للصحف، والبوليس والجيران الأشرار. أما نحن، المثيرون لريبتها والذين لعلها تحبهم، فكانت تحمى نفسها منهم بأن تنفحهم مبلغاً من المال تشترى به بقاءهم ساكتين، وهذا ما كان يتكرر كثيراً.

ولكى تتعقد القضية أكثر، ظهرت على مسرح الأحداث امرأتان جوبريتان، كانتا ـ وفق ما قالت الصحف ـ ابنتين للمرحوم دون أوكتابيانو دى لوس مونتيروس، آخر زوج لدونيا ماتيلده. وهاتان السيدتان أو الآنستان، ويعلم الله من كانتا، تخالجهما شكوك تدور حول

أن ميتة والدهما لم تكن ميتة طبيعية، وطلبتا من البوليس أن يقوم بالتحرى وإخراج جثة دون أوكتابيو من قبرها. وادعتا بأن والدهما قد ترك ثروته بكاملها لدونيا ماتيلده. أما هما فلم تحصلا ولا على سنتابو واحد. كما أنهما أبدتا استغرابهما البالغ لأن والدهما كان يحبهما كثيراً، وأنهما كانتا موجودتين في سويسرا، حيث كانتا تدرسان بإحدى الكليات، عندما مات السيد، ودائماً ما كانتا تشكان في دونيا ماتيلده. وقالتا أيضاً إن هناك سبباً أكبر، وهو أن أزواجها الثلاثة قد ماتوا بطريقة غامضة، وبأمراض لم تتم معرفتها، وكيف كانت، وانهم لم يكونوا وحدهم، بل أقارب آخرون لدونيا ماتيلده ماتوا بنفس الطريقة؛ ذلك أنهم كلهم كانوا أثرياء، وكانت هى دائماً الوريثة الوحيدة.

بدا كما لو أن العالم انقلب فجأةً إلى عالم مجنون: فقد ذهبوا إلى المدفن، وأخرجوا أقارب دونيا ماتيلده من قبورهم، وشرّحوا وحللوا عينات من العظام والشعر وكل ما عثروا عليه. وخلال ذلك، كان ما قالته الصحف عن صديقتنا مروعاً: إنها اغتالت أزواجها الثلاثة وأقاربها ليبقى لها ميراثهم. وعندما دفنت قطاً، اكتشفوا منه جرائمها الخفية كلها عبر السنين، وأمور أخرى أكثر فظاعة وقسوة مثل تلك الجرائم. أما بانتشو وأنا، فقد بذلنا جهوداً لا حد لها ليصرحوا لنا بأن نرى دونيا ماتيلده، لكنهم لم يسمحوا لنا. أما ابنتا دون أوكتابيو، فأكدتا أنهما لن تبخلا بشيء من أجل أن تصلا للحقيقة حول موت والدهما. وقد علّقنا بأن هدفهما هو الحصول على أملاك دونيا ماتيلده، كما هو واضح

كالشمس. ولهذا السبب نفسه، تتحدثان بإلحاح عن الأشياء الأكثر إثارة للرعب حولها.

وخلال أيام قليلة، نشرت الصحف أنه قد تم العثور على آثار نوع من السموم هو "ارسينكو" في جثث المدفن، والتي وجدت في أرض الحديقة، وحتى في القط، حيث قتلتهم دونيا ماتيلده بأن دست لهم السُّم بجرعات صغيرة، وفى أيام متتالية. حدث ذلك الذى لم يفكر فيه أحد، حتى وصلت إليه الشائعات وطمع ابنتي دون أوكتابيانو، اللتين تقدمتا بنفسيهما للصحف وللقضاء. وشرح لى بانتشو أن عظام وشَعر تلك الهياكل ليست الآن سوى رماد بعد كل هذه السنين، وعلى الأخص دون فلبرتو، الزوج الأول لدونيا ماتيلده وأخويها الاثنان اللذان مر على موتهما أكثر من عشرين سنة.

وكما أن هذا آلمنا، فإن ما من أحد كان بيده عمل شىء من أجل دونيا ماتيلده. وبقيت المسكينة وحيدة في الدنيا، دون أن تجد من يراها ويدافع عنها في مواجهة الفضائح العديدة.

وتوسلنا لهم ليعطونا الفرصة لنتكلم عن فضلها، لكنهم لم يستمعوا إلينا، ولا أخذونا في اعتبارهم. أما الصحف، فواصلت نشرها لتغطيات وتغطيات أكثر أثناء استمرار المحاكمة. وفى النهاية، أعلن القضاة الحُكم عليها بأنها مذنبة بخصوص موت أزواجها الثلاثة، وأخويها الاثنين، والأخت، وعم وعمة، ومجموعهم ثمانية أشخاص. وصديقتنا المسكينة، التى كانت في الحقيقة الشخصية الأكثر لطفاً وطيبة في الدنيا، ولا تقدر

على قتل ذبابة، والتى بكت كثيراً على موت قط صغير، صارت محكوماً عليها في جرائم قتل غريبة وخطيرة بالسجن مدى الحياة.

بعد ذلك علمنا أنهم قد عادوا لتجميع الموتى في مدافنهم، في أملاك دونيا ماتيلده. وعلى الأقل، فدون أوكتابيانو نقلته ابنتاه إلى مقبرة أخرى. أما الهياكل العظيمة التى وجدت في أرض الحديقة- والتى اختلفوا حول أنها لعم وعمة دونيا ماتيلده، عاشا معها واختفيا من الليل حتى طلوع النهار، دون أن يدلى أحد أبداً بالحقيقة عن اختفائهما- فقد وضعت في قبو دون أوكتابيانو، الذى لم يكن مأهولاً.

وذات يوم نجحنا في أن نراها عبر القضبان الحديدية، دون أن نتمكن من معانقتها، كانت منهكة تماماً؛ من ناحية لسنوات عمرها الخمس والسبعين، وبنية جسمها الرقيق. كانت تلك العقوبة المروعة قاسية عليها، وكان عليها أن تتحمل المعاملة السيئة، وعدم الراحة في السجن، والفظاعات، والافتراءات غير الإنسانية التى كانت فوق الطاقة، بالنسبة لسيدة في مثل ظرفها الاجتماعى، وتربيتها الراقية. ظللنا معها طوال الوقت الذى سمحوا لنا به، ممسكين بيديها من خلال القضبان، وبانتشو وأنا لم نستطع الكف عن البكاء، وهى تجفف فقط دمعة بين الحين والحين. وفكرت بأن تربيتها تحول بينها وبين أن تنخرط في بكاء حار في مكان مثل السجن. إلا أنها أفضت إلينا بكلمات رقيقة ومؤثرة، وأن ذكرانا وحناننا يصاحبانها دوماً، وبأننا لن ننساها. وعندئذ تركناها لأنه كان لابد وأن ننصرف، حيث أن الزيارة قد انتهت. وظللنا ننظر إليها حتى اختفت خلف البوابة الحديدية.

كانت هذه هي المرة الأخيرة التي رأينا فيها دونيا ماتيلده، لأنها- بعد أيام قليلة من زيارتنا لها- ماتت فجأةً. ففي صباح أحد الأيام، وكنا نتناول إفطارنا، إذ بالدون روبرتو الصيدلي يجيء إلينا والصحيفة بيده، وفيها قرأنا أن القاتلة العجوز قد ماتت، كما أنهم يشكُون بأنها قد ماتت منتحرة، وأنهم سيقومون بإجراء التشريح لها للكشف عن أسباب الوفاة. انخرطنا في البكاء، كأن أمنا ماتت مرةً أخرى، ونحن ننظر وننظر إلى الصحيفة دون أن نصل للاقتناع بأن هذا المكتوب شيء مؤكد. وبعد كثير من هذه الأمور، مثلما حدث، لم نعد نصدق أنها ماتت ميتة طبيعية. لقد قتلوها بافتراءاتهم القاسية. هكذا هُم بعض الناس، وعلى الأخص البوليس والقضاة. ومن أجل أن يخرجوا من قضيتها، اكدوا أنها تناولت سُم "الأرسينيكو" الذى قتلت به ضحاياها، إلا أنها تناولت الجرعات دفعةً واحدة. واكدوا بأنها كانت تخفى السُم داخل ميدالية بها صورة لأبويها، وتلبسها دائماً. ولم يخرج أحد للدفاع عن دونيا ماتيلده، فهكذا صارت الأمور.

بعد عديد من الإجراءات والتوسلات، تركونا نحضر دفنها. ذهبنا فقط نحن الاثنين، ومندوبون للشرطة، وحفارو القبور. بدا لنا أنهم قبلوا، كما عرفنا، لأنها طلبت، في رسالة، أنها عندما تموت، يُستخرج تصريح لأستاذ الموسيقى فرانيسكو إسكوبار وزوجته الفاضلة، أصدقائها الأثيرين، بأن يرافقانها حتى دفنها. وذهب أيضاً- كما أذكر الآن- كاهنٌ لم يتعب من رش الماء المقدس في كل ناحية حولها وفى كل لحظة. وكان يبدو عصبياً جداً. دفنوها، وفق رغبتها، مع أبويها بواسطة من يحملون لها

حباً حقيقياً. وبداخل تابوت دونيا ماتيلده، وضعوا صندوقين صغيرين بهما رماد السيدين. أما باتتشو وأنا، فقد حملنا زهور قرنفلها الأبيض، ونحن نبكي طوال الدفن. وبعد ذلك، فدائماً ما نتذكرها وحكايتها الحزينة. وتُعزينا قليلاً عن رؤيتها عينا فيليدور، لأنها كما لو كانت حيةً عينا دونيا ماتيلده.

إيلينا جارُّو (المكسيك)

الخَـــاتم

إيلينا جارُّو

ابنة لأب أسبانى وأم مكسيكية. ولدت إيلينا جارُّو في ولاية بويبلا في 11 ديسمبر 1916. قضت طفولتها في مدينة المكسيك خلال حرب كرستيرا (تمرد الكاثوليك المتطرفين ضد التشريع العلمانى للحكومة الفيدرالية). وفى شبابها، انتقلت إلى مدينة المكسيك لدراسة الأدب، وتصميم الرقص والمسرح. وهناك تعرفت على أوكتابيو باث، الذى تزوجته عام 1937. وفى العام نفسه، سافرا إلى أسبانيا لأحد عشر عامًا.

أنجبا ابنتهما الوحيدة: هيلينا. وتعرفت في رحلتهما إلى أسبانيا على فنانين ومثقفين مثل ثيسار بايخيو ولويس ثيرنودا. وفى نهاية الأربعينيات، أثناء إقامتهما في أوروبا، أقاما صداقات مع مثقفين عديدين كان من أبرزهم أندريه بريتون، وخوسيه بلانكو، وبيوى كاسارس، وآخرين...

وفي عام 1963، كتبت إيلينا جارُّو روايتها الأولى "ذكريات المستقبل" التي تدور في أجواء حرب كرستيرا، والتي حازت جائزة خابيير تيارُوتيا في العام نفسه. وكتبت أيضاً القصص القصيرة مثل مجموعة "أسبوع من كل لون" (1964)، و"هيا بنا نهرب يا لولا" (1980). وكتبت مجموعة من المسرحيات ذات الفصل الواحد، وروايات أخرى مثل "البيت بجوار النهر" (1983)، و"قلب في صفيحة قمامة" (1996).

وعلى امتداد أعمالها المتعددة والمركبة تُحطم إيلينا جارُّو ودائمًا بعنف تقاليد الواقعية المكسيكية، مازجةً - بضربة واحدة - خيالها الأدبي بوعيها السياسي. قال عنها الكاتب والمخرج المسرحي المكسيكي "إيمانويل كاربايو": "هي كاتبة واقعية، ولكن واقعيتها واقعية سحرية أقرب إلى قصص الحوريات، والحكي الذي يثير الرعب؛ واقعية تُفلت من أسر الزمان والمكان، ويتحرر خيالها من المنطق لينتهي إلى العبث، ومن اليقظة إلى الحلم، ماضيةً خلال عوالم الأحلام؛ لترى الإنسان والعالم، بعين المراهقة، براءة الأطفال".

وقد تعرضت إيلينا جارُّو للنفي أكثر من مرة، كان آخرها إلى فرنسا. وعندما عادت منها، هي وابنتها - وكانت قد انفصلت عن أوكتابيو قبل ذلك عام 1959، أصيبت بسرطان الرئة، وأقامت في Cuernavaca مع ابنتها. وتوفيت يوم 23 أغسطس 1998 في مدينة المكسيك، في الواحد والثمانين من عمرها.

دائماً كنّا فقراء، يا سيدي، ودائماً كنّا تعساء؛ لكننا لم نبلغ هذه الدرجة التي نحن عليها الآن من الكرب الذى حل بغُرفنا وأفنيتنا. أعرف فعلاً أن الشر يقع في أى وقت، ويتخذ أى شكل، لكنى لم أفكر أبداً في أنه أخذ شكل خاتم، وأنا أعبر ميدان الأبطال، وكان الظلام يحل، وجلبة الطيور في أشجار اللاورا قد بدأت تهدأ. وأحاط بى المساء "من يعرف ما الذى سيفعله عيالى"، رحتُ أكلم نفسى. منذ الفجر وأنا آتى الى كويرناباكا، متعجلةً الوصول الى بيتى، لأن زوجى، كما هو، وكما لابد أن يكون حين تكون الواحدة قد تزوجت زيجة سيئة، ببى، وعندما أكون غائبة يكون همه ضرب عيالى. أما عيالى، ولم يكن لى دخل في ذلك، وهم كبار يا سيدى، والرب لا يحبه، لكنهم يمكنهم أن يردوا له الضرب. وعلى العكس مع الأطفال، فهو ينتقم لهم. ولم أكد أخرج من الشارع النازل من السوق، حتى فاجأنى المطر. مطرٌ غزير، حتى إنه كوّن أنهاراً في الأرصفة. رحت أشب على أطراف أصابع قدمى حتى أحمى وجهى من المطر، عندما رأيته ـ من سوء حظى ـ يلتمع وسط الماء الجارى

بين الأحجار. بدا كأفعى صغيرة من الذهب، مخدرة تماماً من برودة الماء. وإلى جانبها تتكون دوامات صغيرة.

"تقدمي له يا كاميلا، خاتمٌ من الذهب!" وانحنيت وأخذته. لم يكن ذلك سرقة (لم تكن تلك سرقة). فالشارع هو الشارع، وما يخصنا في الشارع يخص الجميع. كان بارداً جداً، وليس به أى فص من حجر كريم، كان حلقة. جففته في راحة يدى، ولم يبد لى أنه مخلوعاً من إصبع ما، لأنه بقى معى ساكناً. وعلى الفور فقد برودته. وفى الطريق إلى بيتى، رحت أقول بينى وبين نفسى: "سأعطيه إلى سيبيرينا، ابنتى الكبيرة". نحن فقراء جداً، حتى إننا لم نحتكم أبداً على أى حلى، وثرائى- يا سيدى- كان قبل أن ينتزعوا منا الأراضى ليقيموا عليها ناديًا لصيد الحمام حيث كنا نزرعها. رحت واشتريت لى شبشب جلد لميع برباط، لكى أذهب إلى دفن ابنى. ولابد أن تتذكر حضرتك، يا سيدى، أنه- في ذلك اليوم الذى قتله فيه سفاحو ليجوزّيتا بسبب الأراضى- ومن يومها صرنا فقراء. لكن منذ ذلك اليوم، وبدون أراضينا، وبدون ابنى الأكبر- صرنا في الحقيقة في نكبة. لذلك، فأى شيء صغير يرضينا، نفرح به كثيراً. وجدت أبنائى جالسين متحلقين في الفناء.

- تعالوا يا عيال! كيف قضيتم اليوم؟

أجابونى: منتظرين رجوعك، ورأيت أنهم لم يأكلوا لقمةً في النهار بطوله.

- اشعلوا المصباح، وهيا بنا نتعشى.

أشعل العيال المصباح، وأخرجت الكزبرة الخضراء والجبن.

ـ كم هى الفرحة ونحن نمشى بـ"حتة دهب"! قلت ذلك، وأنا أعد لهم المفاجأة ـ وكم هى محظوظة المرأة التى يمكنها أن تقول نعم أو لا، وهى تهز زوج حلقانها الذهب!

قال عيالى: نعم... يا لها من امرأة محظوظة.

وقلت لهم: وكم هى محظوظة الشابة التى تحرك إصبعها حتى يضوى خاتم!

وانطلق عيالى يضحكون. وأنا أخرجت الخاتم، ووضعته في إصبع ابنتى سيبيرينا.

وهنا توقف كل شىء، يا سيدى، إلى أن وصل أدريان القرية، ليلف ويدور رامياً بنظراته على الفتيات. وأدريان لم يكن يشتغل أكثر من يومين أو ثلاثة في الأسبوع، يرمم الأسوار المبنية من الحجر. وأغلب الأيام التى تمر، يقضيها على بوابة "الكابريتشو"، ينظر كيف نشترى الملح وزجاجات مياه غازية مثلجة. وذات يوم، وقف أمام ابنتى الصغيرة أوريليا:

ـ اسمعى، يا بنية، ما الذى يجعل أختك سيبيرينا فاتنة؟

ـ أنا لا أعرف... ـ أجابته الطفلة البريئة.

ـ اسمعى، يا بنية، لمن تُبدى أختك سيبيرينا فتنتها؟

ـ أنا لا أعرف ـ أجابته الطفلة البريئة.

ـ اسمعى، يا بنية، ويدها هذه التى تلبس الخاتم، من الذى أهداه إليها؟

ـ انا لا أعرف ـ أجابته الطفلة البريئة.

ـ انظري، يا بنية، قولى لأختك سيبيرينا ـ حين تشترى الملح ـ أن تتركنى انا لأسدد، وأن تدعنى أنظر إلى عينيها.

ـ نعم، أيها الشاب ـ أجابته الطفلة البريئة، وجاءت لتقول لأختها ما قاله أدريان.

فى العصر، وفى آخر النهار يوم السابع من مايو، كان اليوم حارًا بشكل فظيع، والشغل جعلنا أنا وابنتى سيبيرينا في غاية العطش.

ـ روحى، يا ابنتى، واشتري لنا زجاجات مياه غازية مثلجة.

راحت ابنتى، وأنا قعدتُ في فناء بيتى، منتظرةً رجوعها. وفى انتظارها، أخذت أرى كيف أن الفناء كان مكسراً وممتلئاً بالتراب. فأن تكون فقيراً يا سيدى، هو ما يجعلك تتكسر مثل أى قالب طوب نِيء يُداس بكثرة. هكذا نكون نحن الفقراء، لا أحد ينظر إلينا، والكل يمرون علينا من فوق. والآن، ما تراه حضرتك هو نفسه، عندما قتلوا ابنى الكبير لينتزعوا منا الأرض، ماذا جرى؟ ما جرى هو أن القاتل ليجورِّيتا بنَى قصراً فوق أرضى، وعنده الآن كراسى الركوع في كنيسة القرية، مُنجدةً بالحرير الأبيض. وأيام الأحد ـ حين يأتى من مدينة مكسيكو ـ تكون ممتلئة برجاله السفاحين وعائلاتهم. ونحن الحفاة، الأفضل لنا ألا ندخل، حتى لا ينظروا إلينا باحتقار شديد، وحتى لا

نعاني بشدة من الظلم. تجمعنا السنين، ويحرموننا من المتعة والفرح؛ ويبقى الواحد مثل كوم تراب قبل أن تدفننا الأرض. في هذه الأفكار أنا رحت، قاعدةً في حوش بيتي، في ذلك اليوم سبعة مايو.

ـ "انظري لنفسك يا كاميلا، تعبك شديد! انظري لعيالك. ما الذي سيبقى لهم؟ لا شيء! وقبل أن يعرفوه فسيظلون قاعدين هنا، إن لم يكونوا قد ماتوا مثل ابني المرحوم الذي قتل، بالرأس الغاضبة بسبب فقرها، والسنين تصلبهم كالحجارة، أعد الأيام التي لا يقضونها جوعى"....

وأنا، يا سيدي، مشيت أساير حياتي. ورأيت كيف أن السكك كلها ملآنة بآثار قدمي. كم مشيت! وكم دُرت! وكلها من أجل لا شيء، أو من أجل أن تجد في نهار أحد الأيام ابنك الصغير مرمياً في حقل ذرة، برأس ممزق بطلقات بنادق الموزر، والدم يتدفق خارجاً من فمه.

لم أبك يا سيدي.. فلو بدأ الفقير في البكاء، فستغرق دموعه الدنيا، لأن ما يدفعه إلى البكاء هو الأيام كلها. فلعل الرب يعطيني مكاناً لأبكي فيه. كنت أقول ذلك، حين رأيت أنني كنت في طرقة بيتي أنتظر رجوع ابنتي سيبيرينا، والمصباح كان منطفئاً، والكلاب تنبح مثل نباحها في الليل، حين تتقلقل الأحجار من مكانها. تذكرت أن عيالي قد ذهبوا مع أبيهم للحج إلى يوم الصليب في جيريرو، وأنهم لن يعودوا قبل اليوم التاسع. وفوراً تذكرت أن سيبيرينا ذهبت إلى "الكابريتشو". "أين ذهبت ابنتي حتى إنها لم ترجع؟". تطلعت إلى السماء، ورأيت كيف أن النجوم كانت مرصوصة في صف.

نزلت عيناى وتقابلتا مع عينى سيبيرينا، اللتين تطلعتا إلىّ بحزن من عند العمود.

ـ عندك هنا زجاجتك المثلجة ـ قالت لى ذلك بصوت اكتملت فيه بذور التعاسة.

ناولتنى الزجاجة المثلجة. وحدث عندئذ أن رأيت يدها وكيف أنها كانت متورمة، وأن الخاتم ليس في إصبعها.

ـ أين هو خاتمك، يا ابنتى؟

ـ أنا سأنام، يا أمي.

تمددت فوق سريرها الصغير بعينين مفتوحتين. وأنا تمددت بجانبها.

ومرَّ الليلُ طويلاً، وابنتى لم تنطق بكلمة لأيام عديدة. وعندما وصل جابينو مع العيال، كانت سيبيرينا قد بدأت في النحول بالفعل.

ـ مَن الذى أذاها؟ ـ سأل جابينو، وتجنب شُرب الخمر، ولم يحب أن يشربه لأيام طويلة.

ومر الوقت، واستمرت سيبيرينا في النحول، وفقط يدها ظلت متورمة.

أنا جاهلة، لكننى ذهبت إلى "كويزناباكا" للبحث عن الدكتور آدم، بالمترل في الدانا 17.

ـ يا دكتور، ابنتى تنحل.

جاء الدكتور معى لى القرية. وها هى وصفاته لا أزال محتفظة بها.

وأخرجت كاميلا بعض الأوراق المكرمشة.

ـ أمي! أتعرفين من الذى ورَّم يد سيبيرينا؟ ـ سألتنى أوريليا.

ـ لا، يا ابنتى، مَن؟

ـ أدريان، لكى ينتزع الخاتم منها.

ـ آه، أبو قلب أسود!، وفى دخيلة نفسى رأيت أن وصفات الدكتور آدم لن تستطيع أن تشفيها. وعندئذ، رحت ذات يوم لأرى ليونور خالة أدريان.

ـ ادخلى يا كاميلا.

دخلت وأنا متحوطة، أنظر في كل ناحية لأرى إن كان بصرى سيقع عليه.

ـ انظري يا ليونور، أنا لا أعرف من هو ابن أختك، ولا ما الذى جاء به لى القرية، لكنى أريده أن يعيد لى الخاتم الذى انتزعه من ابنتى، لأنه به يستطيع أن يسبب لها الأذى.

ـ أى خاتم؟

ـ الخاتم الذى أهديته أنا لسيبيرينا. وأدريان بيديه خطفه في "الكابريتشوم". ومنذ ذلك اليوم، وهى فاقدة لصوابها.

ـ لا تأتى لتشتمينا يا كاميلا، فأدريان ليس ابن ساحرة.

ـ ليونور، قولى له أن يعيد لى الخاتم، أحسن له هو وعائلته كلها.

ـ أنا لا يمكننى أن أقول له شىء! ولا أحب أن تهينونا تحت سقف بيتى.

وأنا مشيت من هناك، الليل بطوله، وأنا أتطلع لابنتى.

وأنت تعرف يا سيدى أن الشىء الوحيد الذى يأتى من الناس هو الأذى. ففى تلك الليلة، أخذت سيبيرينا تتكلم بلغة السفلة. آى، ألطف بنا يا يسوع، ولا تسمح بأن تموت ابنتى بمس من الشيطان! وأخذتُ أصلى تسبيحة مريم العذراء. وجارتنا المقربة جابريل، وهى حاضرة هنا، قالت لى:

"هيا بنا الى فوجلينثيا لتُخرج السّحر المؤذى من الصدر".

وتركنا البنت بصحبة أبيها وإخوتها، وذهبنا الى فوجلينثيا. وعلى الفور، ظلت فوجلينثيا ـ الليل بطوله ـ تعالج البنت وهى مغطاة بملاءة.

ـ بعد صياح أول ديك ـ سيكون السحر المؤذى قد خرج ـ هى قالت ذلك.

وهذا ما كان يا سيدى. ففجأةً، قامت سيبيرينا وقعدت في السرير، وهى تصرخ: "انجديني يا أمي!"، ولفظت من فمها حيوانًا كبير الحجم في حجم يدى. والحيوان ألقى بين قدميها قطع من العكب، لأن ابنتى كان بداخلها الحيوان مربوط على قلبها... ولحظتها صاح أول ديك.

ـ انظرى ـ قالت لى فولجينثيا ـ والآن عليهم أن يعيدوا لكِ الخاتم، لأن أمامك ثلاثة شهور وتكون خِلقة الحيوان قد كبرت.

ولم يكد النهار يطلع عليَّ حتى رحت عند الأسوار لأبحث عن أسود القلب. وهناك انتظرته، ورأيته قادمًا، لا، رأيته قادمًا يصفر بفمه، وهو يضرب بقدمه حجراً، قادمًا وعيناه في الأرض ويداه في جيبه.

ـ انظر يا أدريان يا قليل الأصل، نحن لا نعرف من أين أتيت، ولا نعرف من هم أبواك، ومع ذلك فقد استقبلناك هنا بود، وأنت على العكس من هذا، تمضي في إيذاء الفتيات. أنا أم سيبيرينا، وأنا أطلب منك أن تعيد لى الخاتم الذى سَحَرتَها وأذيتها به.

ـ أى خاتم؟ ـ قال لى، وهو يعوج رأسه. ورأيت عينيه وهما تبرقان بسرور.

ـ الذى انتزعته من ابنتى في "الكابريتشو".

ـ مَن الذى قال ذلك؟ ـ وعوج قبعته.

ـ الذى قالته هى أوريليا؟

ـ كيف؟ وهل هذا ما قالته سيبيرينا بنفسها؟

ـ كيف تقول ذلك إذا كانت مصابة بالأذى!

ـ يا سلام! كم من الأمور تقال في هذه القرية، ومن سيقولها في مثل هذه الصباحات الحلوة!

ـ إذاً، فأنت لن تفكر في أن تعطيه لى؟

ـ ومن قال إنه عندى؟

ـ أنا سأؤذيك بالسحر أنت وعائلتك كلها ـ بهذا هددته، وتركته عند الأسوار، وعدت إلى بيتى. وجدت سيبيرينا قاعدة في الفناء في أشعة الشمس. ومرت الأيام وبدأت البنت تتحسن. وأنا رحت لشغلى في الغيط، وفولجينثيا جاءت لتعتنى بها.

ـ حتى الآن لم يعطوكِ الخاتم؟

ـ لا.

ـ الخِلفة تكبر.

ست مرات رحت أشوف أسود القلب أدريان، أرجوه أن يعيد لى الخاتم. وست مرات تحملتُ فيها ـ أكثر من اللازم ـ أمام الأسوار، وهو ينكره بسرور.

ـ أمي، أدريان قال، إنه حتى لو أراد فلن يستطيع أن يعيد الخاتم، لأنه دقه بحجر ورماه في حفرة. حدث ذلك في ليلة كان يمشى فيها سكراناً، ولا يتذكر في أية حفرة حدث ذلك.

ـ قولى له أن يقول لى أية حفرة هى، لأذهب إليها وأبحث عنه فيها.

ـ هو لا يتذكر... كررت لى ابنتى أوريليا، وظلت تنظر إلىّ بحزن لأول مرة في حياتها.

خرجت من بيتى، ورحت أبحث عن أدريان.

ـ يا قليل الأصل، تذكر الحفرة التى رميت فيها الخاتم.

ـ أية حفرة؟

ـ التى رميت فيها الخاتم.

ـ أى خاتم؟

ـ ألا تريد أن تتذكر؟

ـ الشيء الوحيد الذى أتذكره هو أننى خلال أربعة عشر يوماً سأكون قد تزوجت من إينيس، ابنة خالتى.

ـ ابنة خالتك ليونور؟

ـ نعم، بهذه الشابة.

ـ إنه خبر جديد.

ـ جديد جداً في أول هذا الصباح...

ـ ليس قبل أن تعطينى خاتم ابنتى سيبيرينا، والشهور العلامة قد انتهت.

ظل أدريان ينظر إلىّ كما لو كان ينظر من بعيد جداً. تحملتُه أكثر من اللازم، وخطوت داخل السور خطوة واحدة:

ـ أقول لك ذلك، إن لم تكن تعرف، فسأكون قادرة على أن...

وهناك، بقى، ينظر إلى الأرض.

وعندما وصلت إلى بيتي، كانت سيبيرينا ممددةً على سريرها. وقالت لي أوريليا إنها غير قادرة على المشي. بعثتُ لإحضار فولجينثيا. عندما وصلت، أخبرتنا أن عرس إينيس من أدريان سيكون يوم الأحد، وأنهم بالفعل قد دعوا العائلات. لحظتها نظرت إلى سيبيرينا بحزن بالغ.

ـ ابنتك لن تُشفى. ثلاث مرات أخرجنا السحر المؤذى، وثلاث مرات تترك الخِلفة تكبر. لا تتكلمي معها أكثر من ذلك.

وبدأت ابنتي تتكلم تلك اللغة الغريبة، وعيناها تسمرتا بالسقف. وهكذا صارت لعدة أيام وعدة ليال. ولم تستطع فولجينثيا إخراج السحر المؤذى، حتى يصل إلى حجمه الكامل. ومن يقول لنا، يا سيدى، إننا بالليل سنكون أكثر سوءاً؟ أخرجت فولجينثيا منها الحيوان الثانى بقِطع أكبر حجماً من قبلها، وبالكاد بقى لها جزءٌ صغير من قلبها، لكنه يكفى إلى حد كبير لأن يتعلق به الحيوان الثالث.

طلع هذا الصباح كأن ابنتي شبه ميتة. وسمعتُ الأجراس تقرع.

ـ ما هذه الجلبة يا أمي؟

ـ أجراس، يا ابنتي.

ـ إن أدريان يتزوج ـ قالت أوريليا ذلك.

وأنا، يا سيدى، تذكرت ذا القلب الأسود، والعرس الذى يحيونه فيما ابنتي تموت.

ـ الآن، سأذهب.

ومضيت قاطعةً شوارع القرية، ووصلتُ إلى بيت ليونور.

ـ ادخلى، يا كاميلا.

أناس كثيرون كانوا هناك، وكثيرة كانت آنية طبخ اللحم والفلفل، وزجاجات المياة الغازية المثلجة. دخلت أدير بصرى في كل النواحى لأرى ما إذا كنتُ أراه. كان هناك بفم ضاحك وعينين عابستين، وأيضاً كانت هناك إينيس، متهللةً جداً، وهناك كان أعمامه وأبناء أعمامه آل كادينا، مسرورين للغاية.

ـ يا أدريان، سيبيرينا بالفعل لم تعد من هذه الدنيا، ولا أعرف ـ إن بقيت ـ إن كانت ستستطيع الوقوف على الأرض لتحيا من جديد. قُل لى في أية حفرة رميتَ الخاتم الذى قتلها.

أصيب أدريان برعب، ولحظتها رأيت الغل في عينيه.

ـ أنا لا أعرف أي حُفَر. الحشائش تجف من الشمس الشديدة، وعدم الري. والشابات يفعلن ذلك لشخصٍ ما، ويبقين بلا أحد. كلنا سمعنا صراخ كلماته الغاضبة.

ـ سيبيرينا جفت، لأنها فعلت ذلك من أجل الشخص الذى لن يكون أنت، ولذلك عملت لها ذلك العَمَل السيء، يا ساحر النساء!

ـ دونيا كاميلا، حضرتك لا تعرفين لَمن كان هذا الفعل من ابنتك سيبيرينا.

تراجع إلى الوراء، ونظر لى بعينين ترسلان شرراً. لم يبدُ عريسًا ذلك اليوم الأحد، ولن أبقى له أقل أثر من الفرحة، ولا ذكرى للضحك.

ـ السحر المؤذى تَم. والآن تأخر وقت الشفاء.

هكذا تكلم قليل الأصل من أوميتييك، ومضى يتراجع للوراء وهو ينظر لى بغيظ أشد. وأنا مشيت نحوه، كما لو كانت تشدنى عيناه "هل ستختفى؟". رحتُ أقول وأنا أتقدم إلى الأمام، وهو يتراجع للخلف كل مرة أكثر غيظاً، إلى أن خرجنا إلى الشارع، لأنه يتبعنى مشدوداً، بشعلات عينيه.

"إذهب إلى بيتى لتقتل سيبيرينا".

وهو قرأ ما أفكر فيه، يا سيدى، لأنه سار مِن هناك، وولى هارباً. اقتفيتُ أثره ومشيت وراءه. رأيت قميصه أبيض، ناصعًا، وفى نفس اللحظة، عندما انعطفتُ مع انعطافة ناصية بيتى، رأيته أحمر للغاية.

لا أعرف كيف، يا سيدى، لحقتُ به لأطعنه في القلب، قبل أن يقضى على ابنتى سيبيرينا.

لزمت كاميلا الصمت. نظر رجل البوليس إليها بضجر. والشابة التى تكتب الاعترافات ـ بطريقة الاختزال ـ أوقفت الكتابة بالقلم الرصاص.

جالسون على كراسى مكسوة بقماش مشمع، والأقارب وأرملة أدريان كادينا أحنوا رؤوسهم. إينيس على صدرها دم، ولا دموع في عينيها.

هز جابينو رأسه، مؤكداً كلام امرأته.

ـ وقِّعي هنا، يا سيدتي، ودعي زوجك، لأننا سنضعك في الحبس.

ـ أنا لا أعرف كيف أوقع.

استدار أقارب أدريان كادينا إلى الباب الذي كانت سيبيرينا قد ظهرت فيه. جاءت شاحبةً وبضفائر محلولة.

ـ لماذا قتلتِه، يا أمي؟ لقد رجوتُه ألا يتزوج ابنة خالته إينيس، إلا في هذا اليوم، لأنني سأموت، ذهبت لأصطدم بغضبه لكي ينفصل عنها..

وغطت سيبيرينا وجهها بيديها، وكاميلا لم تستطع أن تنطق. جعلتها الدهشة تفقد النطق لوقت طويل.

ـ أمي، أنتِ تتركيني في الطريق وحدي!...

نظرت سيبيرينا للحاضرين، ووقعت عيناها على إينيس، وكانت تضع يدها على صدرها، وفوق فستانها من اللينوه الشفاف الوردي، تداعب الدم الذي جف لأدريان كادينا.

ـ بكيت كثيراً في الليلة التي أخرجت فيها فوجينيا من ابنتها للسِّحر، ومن الإحساس ـ بعد ذلك ـ بأنه يريد أن يتزوجها. لقد كان يتيماً، وأنا ابنة خالته. وكان جاهلاً بمن يحبهن، وبالطريقة التي يسلكها..ـ قالت إينيس ذلك، خافضةً عينيها، بينما يدها تداعب دم أدريان كادينا.

وفى اللحظة التى سلموا لها القميص الوردى لزوجها الشاب، كانت هناك خياطةٌ في مكان القلب لخاتم، مثل أفعى ذهبية صغيرة، وعليه نُقشت كلمات: "أدريان وسيبيرينا المحترمين".

خوان رولفُو (المكسيك)

كليوتيـــلده

خوان رولفو (1918ـ 1986):

ولد الكاتب المكسيكي خوان رولفو في بلدة سابولا بولاية خاليسكو، بناحية لوس باخوس، في المكسيك عام 1918. له مجموعة قصص وحيدة ـ هي "السهب الملتهب" (1953)ـ ورواية بالغة التفرد هي "بدرو بارامو" (1955)، التي قال عنها كارلوس فوينتس: "إنها أفضل تعبير حققته الرواية المكسيكية حتى الآن"؛ وعدها خورخي لويس بورخيس من بين أفضل مائة عمل أدبي في العالم؛ وقال عنها جابرييل جارثيا ماركيث: إنني لم أتمكن من قراءة عمل أدبي آخر خلال أكثر من ستة أشهر بعد قراءتها". واعتُبرت واحدة من روائع الأدب بما أثمر عن صدور خمسين ترجمة لها إلى اللغات المختلفة. وبهذين العملين، حاز خوان رولفو مكانته في طليعة كتاب أمريكا اللاتينية المبدعين والمجددين منذ بداية خمسينيات القرن الماضي.

واجه خوان رولفو حياة قاسية، فعانى من اليُتم بعد مقتل والده (1924)، وهو لم يتعد السادسة من عمره، ثم وفاة أمه (1930)، وهو في الثانية عشرة، فانتقلت الوصاية عليه إلى إحدى جداته في وادى الحجارة.

وقضى خوان رولفو السنوات الأولى في دراسته في مدرسة داخلية، كان يفضل أن يسميها "ملجأ الأيتام"، ثم انتقل إلى العاصمة ليعيش في كنف عمه، ثم هجر دراسته للحقوق ليلتحق بوظيفة في قسم الأرشيف بالإدارة المكسيكية للهجرة. وتعرف على الكاتب "إيمرن أرنانـدث"، الذى شجعه على الكتابة، وكان له الفضل في دعمه فيما أنجزه.

وقد عاش حياته أقرب إلى التجرد، عازفاً عن الشهرة والأضواء: "لقد كنت أعمل في الأرشيف. وفى الأرشيف ينسونك، وهذه هى أفضل طريقة ليتركونا في هدوء". وعندما يلحون عليه بالسؤال عن سبب ندرة كتابته؛ يقول لهم: "أنا لست كاتباً محترفاً. أنا كاتب هاوٍ، أكتب عندما تواتينى الكتابة، وعندما لا تواتينى، لا أكتب!".

وهذه القصة "كليوتيلده" مأخوذة من كتاب: "كراسات خوان رولفو". وقد وُجدت ضمن مسوداته بعد موته عام 1986، ولم تُنشر في مجموعته القصصية: "السهب الملتهب". وهذه أول ترجمة عربية لها.

لقد صرت بالفعل فُقاعةً من المرارات، تمحوها كلها بنظرة واحدة إليّ وتدعني أنظر إليها، وذلك أن أنظر إلى امرأة كواحد يحب أن ينظر عليها، دون أن يكون بينها وبين الواحد شيء، سوى فقط نظرة العيون، ليرتد مجنوناً. ويفقد القدرة فجأةً على الكلام. ولابد أن هذا يؤثر في بشكل طيب. هذا ما فكرت فيه.

الواحد ظل دائماً وحيداً. وبالنسبة للواحد الذى مات أهله منذ زمن طويل، وظل هائمًا في الدنيا ليتبدد مثلما تتبدد في الهواء قطرة صغيرة من السحاب، يفقد الواحد ويفقد شيئاً فشيئاً الآمال في أن يعثر على ما فقده من أجل أن يمسك بأنفاسه، وفجأة يظهر بوخزاته في أذرعته، بعينيه الظاهرين في الماء؛ بتلك الطريقة التى تقبض بشدة على الواحد ويستسلم ويرشده، عوضاً إلى العلاج حتى لا يشعر بالخجل.

نظر إلى الحائط للحظة وفكر فيما تم مما حكاه، وفكر أيضاً في الطريقة التى يرتبها في حقله من أجل خالتى سيسيليا، فيما لو كانت حية، لكن لا، لا أحد حى، ولا أبى الذى عاش هنا، وبالمثل لم يتوصل

الواحد إلى أن يعرف ولا حتى أمه، ولا أحد أكثر من ذلك.. في الحائط فقط لبناتُ طوب مخلوعة، ولطخاتٌ من شيء ما، والذى ألقى به شخصٌ ما من زمن طويل.

وإلى حيث لم أكن أحب أن أنظر، حيث يعلو السقف، لأن في السقف تعترض النظر العروق الخشبية كما لو أنه يوجد شيء حي، فوق كل شيء في الليل، عندما تحترق ذبالة بقية شمعة، ذلك الظل الذى يوجد على السقف يتحرك. وأنا لا أعتقد أنه يجسدنى، هو شيء لا أعرفه: إنه تجسيد كليوتيلده.

كليوتيلده صارت أيضاً ميتة، لكنها لم تكد. كليوتيلده أنا الذى قتلتها، مع ذلك فأنا أعرف كل شيء عما فعله الواحد، بينما يواصل الواحد الحياة؛ ذلك ما قد حدث.

منذ حوالى ثمانية أيام تقريباً، قتلت كليوتيلده، ضربتها ضربات عديدة في رأسها، ضربات هائلة وبقسوة، حتى بقيت ساكنة ليس بمثل ما احتفظت به من حقد شديد هو الذى أدى لقتلها، لكن لحظة من الغيظ وفيها، حدث كل شيء وهى ماتت. بعدما تسلل إلىّ الحقد ضدها ليكون مصيرها الموت، والآن هى تطاردنى. وها هو ظلها، فوق رأسى؛ ممتد بطول عروق الخشب كما لو كانت ظل شجرة مصابة بخدوش. وعلى الرغم من أننى كلمتها لمرات كثيرة حتى تمضى من هنا، حتى لا تواصل مضايقة الناس، فهى لم تتحرك من هنا، ولا حتى تكف عن النظر إلىّ.

أنا لا أعرف تماماً أين هى عيناها؛ إلا أننى أتخيل أنها تنظر إلىّ ليس فقط بعينيها، لكن بكل جزء من ظلها وأحياناً يبدو لى أنها ما تزال تنزف دماً، لأننى أحس بسقوط قطرات سوداء من رأسها، كما لو كان شىء ما يعصر جدائل شعرها.

كليوتيلده لها جدائل شعر بالغة الجمال وصقيلة (ثقيلة). وفى مرات حلمت بأننى مازلت؟ نائماً معها وأننى أخبئ وجهى وأضغطه في تلك الجدائل لشعرها شديدة النعومة حتى إننى أنسى كل شىء و، حتى هى؛ أنساها. وبالنسبة لى لم أكن مهتماً بأن كليوتيلده تنسحب من جانبي في الساعة التى تحب، بمثل ما تتركه لجة شعرها لكى أخفى وجهى فيها، وأرطب يدىَّ في هذه المياه اللطيفة التى تبدو حاضرة.

ومع كل، فقد حدث الأمر هكذا. عندما تكون هى معى، أكون ممتلكاً لأكثر ما أحب، أما الأيام الأخيرة، فهى لا تدعنى أراها سوى من المساء للمساء وتذهب وهى تلف وتدور حتى الفجر، بالشكل الذى جعلنى لا أذوق أبداً الأجمل من كل الطعوم التى قد عرفتها.

وعلى الفور قتلتها، وما تبقى لى منها هو الوقت لندمى. ثمانية ليال هى التى كانت لى لأظل بلا نوم. وبمثلها كان باستطاعتى الندم لمرات عديدة كهذه، ولو لم أتذكر أكثر التفاصيل عن اليوم الذى قتلتها فيه، لمقت بالفعل الساعات. علىَّ أن أتخلص من الندم الذى يلازمنى حتى تتركنى في سلام.

لكن كانت النتيجة أن تذكرى لهذا اليوم كان أكثر إلحاحاً، تقريباً لم يتح لى فرصة لتذكر شىء آخر. حتى إن أظافرى طالت من كثرة ما عاودت استعادة ذلك اليوم؛ ليس للساعة التى قتلتها فيها، لكن الوقت القليل قبلها، عندما رغبت في مداعبة شعرها وغضبت هى.

لذلك، كان هو سبب تذكرى، للوجه الذى واجهتنى به وما قالته لى آه! لو لم تقل لى شيئاً، غيظى كان سينتهى بالنوم، كما كان يحدث له في مرات عديدة، الأمور كلها انحصرت في الانتقام وأنا فقط لم أكن محتاجاً لجهود لقتلها.

ومع ذلك، وبالرغم من أنها، وعلى مدى أربعة أشهر لم تكن تنام معى، ولم يكن لها الحق في أن تغضب، غضبت وتصرفت كدبور عندما طلبت منها أن تنام إلى جانبي. هى كانت زوجتى، وكان عليها أن تتيح لى الجسد عندما أحتاجه. قالت لى:

ـ أنت بزبالتك زبالة!

عندئذ نشفت فمى بطرف الملاءة.

ـ خنزير! فلابد أن خالتك سيسيليا قد ربتك على عوراتها. وزدت على قولها: وهى تشدد في نفس اللحظة على كلماتها بأن طوحت بمرافق يدها الضخمة لتخبطنى بها على أنفى، وهنا ظلت كلماتها لوقت طويل، لطخات في وجهى. لماذا تقول شيئاً مثل هذا عن خالتى سيسيليا؟ ما الذى عملته خالتى سيسيليا لتتكلم عنها هكذا، هه؟ ما الذى عملته؟ نهضت من الفراش.

ـ مجنون!ـ ضرخت فىَّـ، ناهش أحشاء الموتى!

توقفت بعد خطوتين أو ثلاثة، استدرت عائداً إلى الفراش ونظرت إلى كليوتيلده عن قرب. هل قالت إن خالتى سيسيليا كانت هذا وذاك؟ من هى كليوتيلده حتى تسيء إلى خالتى سيسيليا بمثل هذا الكلام؟ لعلها لا تعرفها؟

أمسكت كليوتيلده من شعرها وفجرت فيها غضبى.

ـ اتركنى يا مجنون يا ملعون!

لكننى جرجرتها بيدىَّ الاثنتين، وانتزعتها، خارج الفراش. كانت مرتدية فستانها كما لو كانت ذاهبة إلى زيارة. فقدماها كانا حافيين. سمعت قدميها وهما تصطدمان بالأرض معاً. عوراتها؟! إلى أين تريدين الوصول بكلامك هذا؟

أمسكت بالماسورة التى كنا نسند بها بابنا، وبها خبطت رأس كليوتيلده. وهى تقوضت مثل كرسى تحطم: "ياانا يا مسكينة"! وهذا فقط ما استطاعت أن تقوله بصوت نصف غائب عن الوعى.

بعد ذلك صرت لا أعرف لماذا واصلتُ ضربها، كنت أرى الماسورة وهى تنزل عليها وترتفع كما لو أنها لم تكن فى يدىَّ. ورأيت يدىَّ مدفوعتين بأوردتى المنتفخة بالدماء، وشعرت بالقطرات الساخنة التى تندفع من رأس كليوتيلده وقد أغرقت عينى بالدم وأعمتنى.

وعندما سكن الغيظ من جديد في مكامنه، وعدت لأرى بوضوح كل ما يحيط بى، كانت كليوتيلده بالفعل ميتة. أحنيت رأسى لكى أراها ونزلت مقرفصاً بجوارها، ظللت للحظة أتأمل وأعيد تأمل هذا الكيان المتكوم الذى ينتفض من وقت لآخر، والذى ينزف الدم الذى ينثال من الأنف ومن الفم.

عندئذ قدرت كم هى رقيقة هذه الحياة، وكم هو قليل الجهد الذى يبذل لكى أحطمها، وأننى أبداً ما فكرت كم هو بالغ السهولة قتل الناس. ذلك طرأ على تفكيرى عندما نظرت إلى كليوتيلده وقد صارت بلا آمال، بذراعيها الساقطين وجسدها المتداعى كما لو كانت كلها قد نسلت.

لم تتمثل لى أبداً السهولة البالغة التى جرت لكى تموت. لا، لم يكن مطلوباً أن تموت. فما أردته فقط هو أن أخيفها، أن أجعلها تخاف حتى تهمد رغباتها في أن تسيئ إلى اسم خالتى سيسيليا، وأن ترى أن عليها ولو بهذه الطريقة أن تسلك بشكل أفضل،: ألا تصل إلى بيتها في ساعات متأخرة جداً من الليل، وهى تلوك في فمها ما يزال باقياً من آثار الرجل الذى كان يضاجعها. أنا لا أحب أن تستمر الأمور هكذا. وأنا ليس لى هذا الجلد السميك لكى أحتمل دائماً، وهى تستطيع أن تدرك ما الذى سيجرى مع مرور الوقت. وهذا ما قلته لها بالفعل ذات مرة.

وفى هذه المرة تكلمت كثيراً بتودد إليها، بكلمات رقيقة، مثلما شرحت لها تقريباً لكى لا تدفعنى بعيداً عنها بغضب. قلت لها:

ـ انظرى يا كليوتيلده. أنا الآن رجل عجوز. على وشك أن أكمل التاسعة والخمسين، وكما يمكنك أن تتخيلى فحاجتى إليكِ قليلة، وهذا أيضاً بالنسبة لكِ. لكننى أحب هذا القليل أن تعطيه لى أنا، كلما وعندما، وبكل رغبتك، وبالنسبة لى، فأنا لا أعرف الكثير عن الشكل الذى تحبين أن تبدى به هذه الرغبة التى لديكِ للقيام بهذه الأمور. وحقيقة أنت لم تعرفى عن ظهر قلب ما أرغب فيه. ومع ذلك، أنت لا تريدين أن تقدمى لى هذا الجميل. أنت تذهبين للآخرين، أتظنين أننى لا أعرف إلى أين تذهبين عندما تغيبين طوال الليل؟ أنا أعرف تماماً، يا كليوتيلده. أنت تكونين في هذا المكان أو ذاك، مع هذا الرجل أو ذاك. لقد رأيتك في بيت بدرو نائمة معه، وأنت تضحكين من دغدغاته لك والتى يعرف كيف يدعوك بها بلسانه، ورأيتك أيضاً مع فلورينثيو الذى يؤجر لك الأسطوانات، ومع كثيرين آخرين يا كليوتيلده، مع آخرين كثيرين والذين لا أعرفهم بالتقريب ولا من هم، إلا أننى أبداً ما شكوت لكِ. أليس حقيقى أننى ما شكوت لك من شىء أبداً؟ وعندما كنت أفكر غى أن أفعل ذلك، كنت أقول لنفسى: "القرع لا يمكنك أن تشكو له لأنه يعطى قرعاً مليئاً بالدود". هذا ما كنت أقوله لنفسى وأقفل فمى. وعلاوة على ذلك، ما الذى سآخذه أنا من تشاجرى معك؟ أنت تتركينى وتخرجى دائماً، ذلك وحده ما آخذه منك وأنا فارض نفسى وغصباً عنك ويؤلمنى أن أجلس وأفكر أنكِ تتركينى وتخرجى هكذا، ببساطة، لكنى أراكِ تعودين بعد ذلك، وعندئذ سأعرف كم سأحس بنفسى، وببؤسى في الحقيقة، عندما أفقدكِ.

وواصلت الكلام إليها عن أشياء أخرى. ومضت لحظة خطر لى فيها حتى أن أقول لها إنه ليس مهماً بالنسبة لى أن تتلهى مع الآخرين، ولا أن تتذكرهم بينما هى في حضنى. بدى لى أننى قلت لها شيئاً من ذلك. هكذا كنت قانعاً بالتفاهم، وذلك لأننى أحبها. واستطيع بكل تأكيد أن أرى على مدى فراسخ وأكثر أننى أحب كليوتيلده، مع هذا كله، وهذه المرة أكدت لها أن تخفف من حدتها إذا لم تستطع أن تصلح من نفسها، أو على الأقل، حاولت أن أقول لها. لم أهددها، كما ترون حضراتكم، كان اهتمامى بأن أرشدها إلى أن تقوم بإرادتها بإصلاح نفسها بنفسها، لكننى لم أجرؤ. الآن وحتى وقت قصير من الليل الذى قضته من قبل معى والذى كانت تقطعه بتلك الطريقة التى تقريباً تختفى بها. الآن لا ترى، ولا حتى تريد أن تشهد شروق الشمس حيث تكون في سريرها، وسريرها صار بارداً وأنا وحدى فيه، إذ أنه لا يكفى، بوجودى فقط فيه، كى يمنحنى الدفء بدونها.

فى الأيام الأولى أقنعت نفسى بأننى أسمع خطواتها. أفتح عينى وأبقى ساكناً وأتوقف عن التنفس، منتظراً سماع تلك الآتية ووقع خطواتها يقترب، اقتنعت بذلك. هى وصلت ونامت في قميص نوم ودائماً، تخلع ما ترتديه، دون أن تضع فوق جسدها شىء أكثر من ذراعيها، وتنام على الفور. ويطير النوم من عينى من كثرة ما أرى، ذلك النوم الذى تنامه كليوتيلده، من رؤيتها وهى تمشى بيديها على ركبتها تهدئ نفسها بأن تربت عليهما بدءاً من أصابع قدميها حتى مفاصل الساقين، وتقترب من بطنها، فتطيب خاطرها؛ وأراها تصعد من بين نهديها وتمر عليهما

برقة حتى يناما، وتستمر لتشغل نفسها بالكامل تاركة فقط الهواء دون صوت لتنفسها، هذا الصعود والهبوط مثل نجار يملؤها ويخلصها من تعبها، وأنا أنظر إليها. فتحت عينى على ذلك الضوء الأزرق الخفيف للفجر وأنا راضياً بذلك. كانت حبيبة، أحياناً، آخذ إحدى يديها وأبقيها معى دائماً، إلا أن هذا كان صعباً، فهى كانت تريد أن أتركها لتنام. لم تكن تحب هى أن أدغدغها. كانت شبعانة من الدغدغة من الآخرين كلهم: "إعقل!" هذا ما تقوله لى: "أنا لغاية هنا!" مشيرة إلى رقبتها.

هى تنتهى من وصولها من عند بدرو أو من عند فلان آخر، وفى ذلك الوقت، لا ألمسها. ألتهمها بعينى، إلا أننى أخفى يدى حتى لا تلمسا حكايتها؛ أريحهما تحت المخدة، متلاصقتين بشدة مانعة كل منهما الأخرى، خشية ألا تحتملا حمى لمس ذلك الجسد الأزرق الذى بجانبي، وعلى الفور يحاورنى أمل في أن كليوتيلده لديها رغبة في أن أعانقها بشكل ما.

فى هذه الأوقات الأخيرة لا تبدو هنا هذه الرغبات. بل تبدو مريضة وتنفسها مصاب باليرقان وأن بدرو أو أى شخص آخر، قضت الليل معه يتركونها منهكة لا تنفع لشيء وذلك كان ما يحدث لها.

لقد تسببت لى في إجهاد يثير غضبي الآن بالرغممن أنه لم يثر غضبي وقتها مما فعلته بكليوتيلده فهى لم تقدر ما تسببه لى من البؤس الذى كنت سأعانيه لو لم أقم بما فعلته، ومايزال، والآن أضعها بمودة أمام عينى المؤرقتين مثلما كانتا تتطلعان للحياة ممتلئتين بالحب، لكن دون أن تريا

شيئاً. وعلى الفور اقتربت من سخونة جسدها العارى، كما لو أنها تثير بغضبها الشديد أكثر نواياىا السيئة.

ـ لا تقترب منى!ـ قالت لى بلسانها وهى تكذب في نومها.

هى التى استفزتنى لأقوم بعمل سىء. ولقد فعلته منذ حوالى ثمانية أيام أن قتلتها، أمسكت بالماسورة التى نسند بها الباب وخبطتها بها على رأسها خبطات مباشرة. هكذا ماتت. بعد ذلك بكيت، وجدتنى مشدوداً لكى أتأملها عن قرب وعند رؤيتها في الحالة التى كانت عليها، بكيت، هى أيضاً لابد أنها كانت تبكى، لأننى أذكر جيداً أننى أخرجت منديلى لكى أمسح لها الدموع التى تساقطت منهمرة من عينيها، وبعد برهة مما حدث، أسرعت وفتحت الباب وخرجت.

الفهـرس

خوان بوش (الدومينيكان): **الروح الحلوة لدوان داميان**............5

خورخى لويس بورخيس (الأرجنتين): **قصة المحارب والأسيرة**...23

لويسا بالنثويلا (الأرجنتين): **المراقبـون**.......................33

خوان كارلوس أونيتى (الأورجواى): **سانتا رُوسا**...............41

خوسيه دونوسو (شيلى): **سـيِّدة**.................................53

إسادى كيروز (البرتغال): **الكنـز**...............................67

ألبارو ثيبيدا ساموديو (كولومبيا): **هيا بنا لنقتل القطط الصغيرة**..83

أمبارو دابيلا (المكسيك): **ماتيلده اسبيخو**......................91

ايلينا جارو (المكسيك): **الخاتـم**................................115

خوان رولفو (المكسيك): **كليوتيـلده**.............................133

المترجم، **محمد إبراهيم مبروك**:

ولد في أول يناير عام 1943 في قرية طملاي، بالمنوفية. نشر أعماله القصصية في مجلات "المجلة"، و"جاليري 68"، "الفكر المعاصر"، "أدب الغد"، و"مواقف"، و"الكرمل"، ثم أصدر أول مجموعة قصصية له: "عطشى لماء البحر" عام 1984، التي صدرت لها ثلاث طبعات.

في مجال الترجمة من الأسبانية، صدر له "رقص الطبول" (مختارات قصصية)، و"وسم السيف"، و"حين تقطعت الأوصال" للكاتبة المكسيكية "أمبارو دابيلا"، وأشجار متحجرة" لنفس الكاتبة، ومجموعة "حديقة موحشة" لرامون دل بايي انكلان، فيما يصدر له "الأصابع الساحرة للأميرة الصغيرة"، للكاتبة الأسبانية ماريا لويسا خيفائيل (قصص للأطفال) و"حكايات خرافية وأساطير" للكاتب البيروفي ثيرو اليجريا.

للنشر فى السلسلة :

* يتقدم الكاتب بنسختين من الكتاب على أن يكون مكتوباً على الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء. ويفضل أن يرفق معه أسطوانة (C.D) أو ديسك مسجلا عليه العمل إن أمكن.
* يقدم الكاتب أو المحقق أو المترجم سيرة ذاتية مختصرة تضم بياناته الشخصية وأعماله المطبوعة .
* السلسلة غير ملزمة برد النسخ المقدمة إليها سواء طُبع الكتاب أم لم يطبع .

صدر مؤخراً فى سلسلة
آفاق عالمية

97- أسباب تجعلنى راغبا فى الموت

ترجمة : غادة الحلوانى

98- فن الحرب عند سونبين

ترجمه : محسن فرجانى

99- القول الفصل فى فصل واحد

ترجمه : يسرى خميس

100- مجمل تاريخ الأدب الروسى

تأليف : : مارك سلونيم

ترجمه : صفوت عزيز جرجس

101- مطارحات عائلية

اختيار وتقديم وترجمة : مفرح كريم

102- دون كازمُورُو

تأليف : ماشادو ده أسيس

ترجمة : خليل كلفت

103- الإخوة الأعداء

تأليف : نيكوس كازانتزاكى

ترجمة : إسماعيل المهدوى

104- آنا بــــاز

تأليف : سان جون بيرس

ترجمة : علــى اللواتــى

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقاً)
ت:23904096 - 23952496

سلسلة
آفاق
عالمية

مجموعة من الدرر الإبداعية (القصص القصيرة) الناتجة من خيال مطلق السراح، بلا حدود أو قيود، بلا مثال مسبق أو نمط. خيال ساحر سحرى، لسادة القص والحكى فى أمريكا اللاتينية وإسبانيا: خوان بوش (الدومينيكان)، خورخى لويس بورخيس (الأرجنتين)، لويسا بالنثويلا (الأرجنتين) خوان كرلوس أو نيتى (الأورجواى)، خوسيه، ونوسو(شيلى)، إيسادى كيروز (البرتغال)، البارو ثيبيدا ساموديو (كولومبيا)، أمبارو دابيلا (المكسيك)، إيلينا جارو (المكسيك)، خوان رولفو (المكسيك). مجموعة تقدم أرقى ما وصل إليه فن القصة القصيرة، فى إحدى بقاعه الرئيسية، بقلم مترجم مبدع، محمد إبراهيم مبروك، صاحب المجموعة القصصية «عطشى لماء البحر»، والترجمات المرهفة السابقة من اللغة الأسبانية.

وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة

السعر: ثلاثة جنيهات